الصلاه الصامته

سلمى أبو زيد

الصلاه الصامته

سلمى أبو زيد

تدقيق لغوي : محيي الدين حسن

تصميم الغلاف : عبير محمد

رقم ايداع: 2019/2968

دار فصلة للنشر والتوزيع

٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع

من عثمان محرم - هرم - جيزه

.٢٣٥٦٢٩٣٦٩

fasla,pub@gmail,com

FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

الصلاه الصامته

سلمى أبو زيد

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى أمي؛ أغلى و أحلى أسباب حياتي.
حبيبتي الفنانة؛ آمال أبوزيد.

--- مقدمة ---

بحق الحب النابع من عمق العبادة الربانية. بحق السماح و الغفران الإلهي. بحق الاستسلام الروحاني لأعضاء الجسد البالي. بحق كل الخلق من بعد آدم الأب و حواء الأم. بحق زهد الملك و التملك. بحق الروح التي نُفخت فصار الإنسان إنسان. بحق ربي و بادئ الخلق من عدم. أُصلي. صلاتي داخل روحي و كما بدأت، بوركت، شكرت و حمدت حين عطست. الحمد لله رب العالمين. داخل عظامي و بين أحشائي، تحت جلدي و مع دمي الساري. كالنجوم و القمر و عمق البحار. صلاتي دائماً تصحب شيئاً معها، و لعلني اكتشفته أخيراً لأكتب عنه. فهل تكتشفوه معي؟ عليكم بالقسم الذي قرأتموه لتوكم؛ فهذه هي الحياة تجذب انتباهكم لغير ما انتبهتم منذ البداية. ليس هناك طريق للعودة الآن، فباشروا قدماً، كما فعل أبوكم آدم..

و خُلق آدم مِنْ نُور..

(انبثاق الفجر)

حين تتوقف ذرات الهواء عن الدوران و الدوران حولك، توقف إذاً عن التنفس. إن سبقتك آهات تألمك قبل أن ينجرح إصبعك و ينزف، يمكنك استطلاع المستقبل. يمكنك رؤية الحياة من منظور منخفض كالفأر أو منظور عالي كالصقر. و لكن، تقف أنت بينهما؛ رأسك أعلى جسدك و قدمك أسفله. ترى بأدنى الحركات موازية قدميك و تُحس وجهتك حين يقرر شعاع من النور زيارة ما بين جفنيك. ثم ترى الدنيا.

وجدت نفسي دون تذكر في وسط الطريق. بالكاد يدخل الهواء رئتي و أشك إذ يذهب مني ذاك النفس أنه سيعاودني الزيارة. ما الذي جاء بي هنا؟ لا اعلم.. هاتان الساقان خلقا ليحملاني على الأرض ماشياً أو راكضاً أو زاحفاً.. لا يهم، لكن ما بالهما لا يتحركا كما كانتا من يوم واحد أو شهر واحد أو ربما سنة فاتت؟ لا اتذكر كم مر و أنا هكذا.. ماذا حدث... ماذا للتو حدث؟ و هذه الورقة القديمة في يدي ليست قديمة فقط، أعتقد أن كلامها يزيدني مائة سنة على عمري لذلك تبدو أنها غريبة.. منها، غريبة أن تأتي منها هي بالذات. فها هي تبدأ بعزيزي آدم لكني أشعر إنها كانت لعزيز آخر غيري. لا يمكن أن أكون أنا المقصود.

يأتيني صوت أغنية كانت تحبها هي، ثم أحببتها أنا، مثل بداية كل أنواع الحب حولنا. كل شيء معدي.. حتى ما نكره ينقلب و ما نعشق يتغير و يذبل و يبلى و لن اعلم سر هذا الكون أبدا.

«ذات الروح لا تدري ما تَحْمِل ... و النفس التي تشكي لا تُحمل»

يجب أن أعود للمكان الذي هربت منه، أنا أتوه عنوة كأن الاستقرار لا يشبهني. كأني سأصير شخص آخر إذاً إنتهى كل شيء نهاية سعيدة. تلك التي بها لا أخاف من شيء. و أمي هي أمي فعلاً، ليست نسخة متأخرة منها. و أبي...

يجب أن أعود!

أمسكت بالورقة و يدي لا تتوقف عن الاهتزاز المستمر، يكاد عقلي أن يتصور الكلمات كوحش كاسر في نيته أن يبتلعني إذا وافقت على قراءة فحواها. أقولة لنفسي أرمِ بها بعيداً! تظاهر بعدم امكانية وصولها إليك، كأنك لم ترها لآخر مرة و

لم تمسك بيدها و لم تعطيك الرسالة و هربت. تظاهر أن الكلمات تلك ليست لك. لشخص آخر غيرك و ذاك الشخص ليس له وجود!

عزيزي آدم،

أنا في قمة درجاتي كتائهة. لم يعد الأمر مسل أو مُفرح أو جميل. في الأسبوع الماضي إشتقت إليك كثيراً و أنت لم تشعر بذلك، لكن كل ما كان حولي كان يشعر. لا استطيع أن أقول أن مشاعري تغلب تفكيري؛ على العكس، إن مشاعري لا تفقه طبيعتها أو طبيعتك أو طبيعة ما نحن فيه دون مسمى يذكر. كل ما اعلم أني أحب الكلام معك و الضحك معك. و عندما تلاقينا، لم تقل لي كيف كان صدى ذلك على وجدانك و عقلك و روحك و عينيك. في الحقيقة أنت لم تقل شيء أبداً. كأنك ما رأيتني أو كأنك رأيتني و لم يؤثر ذلك فيك من شيء. أنا في خيبة أمل عميقة. لم أتوقع ذلك منك. أو دعني أقول؛ لم أتوقع ذلك منك أنت أيضاً. أكتب لك هذا و أنا دون استعداد أن أتألم مرة أخرى، هذا خلاصي الوحيد و لا أتوقع منك شيء بل و لا أريد. اعتقد أنه حان الأن وقت رحيلي و رحيلك كأنك لم تأت. فأنا لم يعد لدي الرغبة. و لم استطع أن أجاري جفاك، فها أنا أجاري ارادتي بهجري. أتمنى أن تتأكد من تمنياتي لك بالسعادة أينما كنت تتمناها و أتمنى أن تعثر على ما أنت باحث عنه و أن لا تتردد بالبقاء لأي سبب كان.

حور

هكذا... بخط رديء ودعتني.

هذا رثائها لكل ما مضى و كل ما هو آت. جعلت مني سبب خذلان لا رجوع و لا عدول له. و لا أستطيع أن أقول أنها تركتني و أنا التارك البادىء هنا كما تزعم. لكن أتعلَّم هي لماذا تردت؟ كيف لم أطمئن لفكرة الاختيار المغصوب؟ و أن كلا الطريقين جحيم لي؟ أنا لم أشعر بالفشل إلا عندما جعل مني النجاح اضحوكة.. كيف أهرب من محنتي إلى حريقي؟

حسنا يا حور, إذهبي، لن يطول الأمر حتى اشاركِ الذهاب.

كل هذا يعبث بدماغي، لو أنني فقط أستطيع أن أخرج منه و أكون ثرثاراً خارجيا كما أنا داخلياً لتغير كل شيء. أكون كأمي، لكن أين هي أمي؟

فات على الأمر أكثر من شهر و لا أعلم متى ينتهي هذا أو لعله إنتهى بالفعل و لا أحد يعلم..

(فتح الستارة)

*قبل خمسة أشهر...

رأى على رصيف بالي حقير، عجوزٌ فقد رجله و ناظراً للسماء و ينادي. ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير. كرر العجوز المتكدس، المغطى بالغبار و الهموم تلك العبارة، و في كل مرة تأتي من داخله أكثر صدقاً. لم يفهم آدم، أي خير الذي يتكلم عنه ذاك العجوز؟ و لماذا يقول لله أنه فقير؟ أليس الله بعالم بحاله؟ أليس الله بعالم بجميع أحوالنا؟ إختلط الأمر على آدم، و ظل يراقب العجوز و هو يردد الكلمات مراراً و مراراً. لا يلتفت لأحد من المارة، لا يسأل عن مال أو صدقة. ربي، إني لما أنزلت إلي من خير فقير. نعم، هو فقير، كأن الاعتراف بالنعمة لا يجب أن يأتي إلا من الفقير. سهى آدم للحظات و تذكر زميلته الجميلة ذات الحجاب الأبيض باهظ الثمن. و كيف أنها من عائلة استقراطية، و لا ينقصها شيء و مع ذلك تعترف بنعمة الله عليها. و كيف أن كل من حولها كانوا فخورين أنها محجبة، و أن كل البنات المحجبات يرفعن رأسهن و هن معها، كأنهن ينتمين إليها بشكل أو بآخر. يا ترى، ايسري عليها ذاك الدعاء أيضاً؟ أيعقل أن تكون هي أيضاً فقيرة، رغم ما أنزله الله من نعم عليها؟ إن كانت كذلك، إذاً من هم الأغنياء بيننا؟

انتَبه للطريق أمامه وعاد للقيادة البطيئة في شوارع القاهرة العزيزة. كانت هذه رحلته كل يوم بعد أن ينتهي يومه الدراسي. لايترك التفكير ولا التفكير يتركه. يحلل كل الأشياء وأحيانًا كانت تأتي الأشياء إليه طوعاً ليفك رموزها ويرجعها لأصل أصولها. لا يسعنا أن نقول عليه وسيم لكن ملامحه اخاذة بالفعل; فهناك سحر من نوع آخر داخل عيناه ذوات اللون الأخضر الكاتم العتيم.

سحر يأخذك إلى بلاد اصبح فيها الجمال نادراً لايلمسه أحد. يحذره الجميع. في عامه السابع عشر تلقى هدية من أمه استغربها من حوله; فمن يعطي رواية لابنه كهدية؟ ربما في مناسبة أخرى غير عيد الميلاد, ربما في غير مناسبة بالأصل, ولكنه لم ولن ينسى ماقالته له يومها; «أنت الأن كبرت ويجب أن تعلم أن هناك من كان يفكر بـشكل آخر وقتما كنت أنت في عالم الغيب; يوم عيد ميلادك اقرأ عن من كتب عن سبب الوجود على هذه الأرض. تلك الرواية التي قال عنها العظيم نجيب محفوظ إنها أعظم ماقرأ بحياته.»

في ذاك الوقت, أكتفى بتلك المعلومة; علمت أمه كيف تغريه. كان نجيب محفوظ لديه من الذين في دائرة العظماء الذين لا يجب ذكرهم إلا بالخير والأمل.

فكان لديه من الأسباب أعظمها و هو أن العبقري نجيب وجد تلك الرواية عظيمة. وقد كان؛ قرأ الرواية في خمس ساعات متتاليات وانتهى من كل شيء, وكأن كل الأشياء إختفت حوله ولم يبقى سواه هو والكتاب وكلمات أمه واسم نجيب محفوظ. تغيرت واجهته، تغيرت مسيرة تفكيره وتغير هو داخلياً. أصبح يطرح الأسئلة أكثر من بحثه عن اجوبتها. أصبح متشكك؛ شك اليقين بالمعرفة وليس شك الترك للمفاهيم و المبادىء. أصبح باحثاً؛ كأمه بالضبط.

آدم. داخل نفسه في عالم, وخارجه; سكون. لا يحب أن يشرح لمن حوله ما يدور بـعقله لكنه يعطيهم كل الإشارات التي تجعلهم يظنون أنه معهم وهو ليس بـموجود إلا بفعل ركود الجسد في مكان واحد ووقت واحد بلا تغير ولا تمديد.

تعلم كل الاساليب إلا أن يقول لا عندما يريد; يقولها فقط إذا استطاع.

قلبه أبيض وروحه لازالت لم تعلم ملمس السواد.

كان بالنسبة لأهله انطوائي,، قليل الكلام غير مبالي بما يحدث. وكان بالنسبة لأمه العكس تماماً; فكانت هناك تلك الصلة بينهما كلما حدث شيء ما; كأنها تعلم ماذا يحس وماذا يفكر وماذا يخطط, وكيف يرى شخص أو موقف معيَّن. فأبوه كان يحبه نعم ولكن قليلاً مايفهمه; وكان ذلك عبء على محب وعلى آدم في نفس الوقت. فكان محب يلجأ كثيراً لنور ويشكي لها أن آدم ليس واضحاً وأنه لا يستطيع فك رموزه وهذا يحزنه; وكان آدم في كثيرٍ من المرات يسمع شكوى أبيه لأمه ولكنه أبداً مايقول شيء, ولا يعاتب ولا يواجه. حتى إذا كان هناك مناقشة عن أي شيء كان يذكر اسم نور في البدء ثم يلتفت لمحب عندما يشعر بـنظرة انكسار طفيفة يداريها رغما عنه, فيبادر آدم بـالكلام عن أبيه على الفور; ثم تلاحظ نور هذا وتبتسم. ويعلم آدم سبب ابتسامها فيبتسم هو الأخر.

وصل آدم البيت بعد مشقة وملل الزحام, وجد أمه في البيت وأبيه لم يأتي بعد.

-مرحباً يا نور هانم; كيف الحال؟

نظرت نور إليه مبتسمة وقالت;

-أنا حالي من حالك, فكيف حالك أنت؟

-ليس بالسيء..

-وليس بالجيد..

قالت له ثم صمتت.

-. سأكون بخير.

-أعلم أنك ستكون بخير, في المستقبل إن شاء الله. وأنا أسأل عن الحاضر.

ابتسم وقال لها:

-وما الحاضر وما المستقبل وما الماضي؟ أليس الوقت بـوهم؟ اتعلمين أن هناك مايسمى بالزمكان وذاك قصة شيقة جداً, يقولون أن..

-نظرية النسبية؟

-لايمكن يا أمي, تعلمين كل شيء!

لا, فقط أعلم أنك مهتم بـتلك الأشياء.

إذاً , مصطفى محمود؟

سكت لبرهة ثم قال:

-أجل, آخر كتاب اقرأه حاليا.

-ممتع؟

-كان ليكون أكثر امتاعاً إذا سامح لي بإبهارك ولو مرة.

ضحكت نور ثم قالت له;

ستفعل, يوما ماستفعل. أعلم ذلك.

ابتسم لها ثم اخبرها أنه سيرتاح في غرفته قليلاً وذهب.

رمى ببصره يميناً فوجد الكتاب , لم يهتم ولم يتلهف ليعلم فحواه ; فهو في الأغلب إذا سأل أمه لعلمت الخلاصة وشرحت له ماهية الموضوع من البداية للنهاية.

لكنه ارتكن على سريره ببطء ونظر بتمعن إلى يديه وتابع خطوط كل كف منهما كأنما ينظر إلى خريطة كنز مفقود. لم يقل شيء ولم يجد أي صوت بـرأسه موجود سوى جملة واحدة «ربي إني لما أنزلت إلي من خير فقير» وجد نفسه يرد على نفسه وقال بـهمس»خير وفير.. خير كثير.» انغمس في تلك اللحظة الهادئة ثم كاد أن يصل لشيء, أو لاستنتاج, لكنه فزع بصوت هاتفه حين إتصل به أحد ما; حور.

نظر للهاتف مستغرباً, متسائلاً, غير مدرك سبب الإتصال, قطع كل ذاك و رد;

-ألو؟

-آدم.

-حور..

-مفاجأة؟

-علي أن أعترف بذلك, نعم.

-لم أفكر كثيراً قبل اتصالي بك.

-لو فعلتي لما اتصلتي.

-أجل, صحيح.

-كيف حال فريد؟

-كما هو; بخير أظن.

-وكيفك أنتِ؟

-بخير.

-بحق؟

-هل أراك اليوم؟

-لا أظن ذلك.

صمتت حور ولم تجد أي شيء آخر تود أن تقوله.

-تعلمين, لا يجب أن أراكِ.

-ولكني بخير, أقسم لك. ولن أقول لأحد أي شيء.

-كالعادة. حور, أنا لم أتعود أن أخفي شيء عن نور. عن أمي..

-أريد فقط أن أتكلم معك.

-في ماذا؟

أبوك ثانية؟

-لا أستطيع أن أعود للمنزل.

-ولا تستطيعي البقاء في الشارع.

صمتت حور ثم اردفت;

- آدم، أنت لا تفهم! توقفت في منتصف الكلام ثم همست؛

ربما اخطأت حين إتصلت بك; ربما كان من الأفضل أن أفكر.

- آسف يا حور, هذه المرة العشرون, نفس الكلام, ونفس الموقف.

ونفس ردي لك; أنتي أفضل. أنتي أفضل من كل تلك التعقيدات!

كل هذا في عقلك, فريد لا يكرهك!

-حتى أنت! للحظة يا آدم; فقط للحظة ظننت أنك غيرهم. غير كل العائلة وأنك ستفهمني, ولكني اخطأت للمرة العشرون يا آدم!

-حور, اسمعيني..

لم يكمل آدم كلامه, إنغلق الخط قبل أن يصلح ماخرب مع حور.

كانت حور أكبر من آدم بـسنتان. تشاركه صمته وافكاره أحياناً, لكنها دائماً ما تشك

في كل شيء وفي كل البشر. عندما تركتها أمها حين ولدتها, لم يتبقى لها سوى فريد, خال آدم. ولم يتبقى له هو سواها، وظل يذكرها بذاك الشيء طول الثمان عشر عاما. كيف أن كل من في مكانه الأن لديهم حياتهم الخاصة, وكيف أنها لديها من الحرية مطلقها, وكيف أنه لم يتزوج وانه وانه...

تراكمت الأحكام على حور, وبقيت في تلك الدوامة من الأفكار المتناقضة وانطباعها عن أبيها ذي المنصب, وأنه طوال تلك المدة كان يصر بشدة على تشكيلها كيفما شاء. ليعكس للناس أثر تربيتها, وأن كل ذاك الوقت لم يضع هباءاً.

وكانت حور مع كل تشكيل من فريد, تعند وتعارض أكثر, حتى فاض بها الأمر أكثر من مرة فكانت تتصل بأدم تشكي وتبكي بحرقة, وتقول له أنها لن تعود. أبدًا لن تعود. و في كل مرة, كانت تعود.

تعود آدم على طبعها فكان في البداية ينفعل, ثم أصبح مع تكرار الأمر يعتد انفعالها فيهدأ ويتقبل الأمر بـبرود. وهي أيضًا لاحظت ذلك فتغير نمط رد فعلها.

كانت جميلة, ولكنها نادراً ما لاحظت ذلك. حتى في مرة قال لها آدم أن كل الاشياء الجميلة تظل تفقد قدرتها على تصديق جمالها حتى يأتي أحد غريب يراها لأول مرة ليلفت نظرها للحقيقة. أنها جميلة. وقال لها أننا كل يوم ننظر للمراة ولا نعلم من ينظر إلينا ونحن غير مبالين. كل تلك كانت محاولات منه أن يجعلها ترى; كيف أن كل شيء, كل شيء قابل للتغيير. وأننا نظل نشتكي ونشتكي حتى نفرغ من الحيل ومن البشر فيختفي سبب شكوتنا; وتختفي معه ألامنا إلى الأبد.

فإذا رايناها امامنا ثانية لا ندرك ماهي, ولا نصدق أننا في يوم ما تأثرنا بـمثلها.

حور لم تنتبه معظم الوقت لكلام آدم ,كانت تظن أنه يقول ذلك من باب الشفقة والعطف لا من باب الصداقة والحب. مهما كان يحاول آدم, كانت لا تسمع ولا ترضى. وكذلك, بدأ هو بالإختفاء تدريجياً من حياتها حتى تعتمد على نفسها أكثر. كان يريد أن يريها نواحي أخرى من روحها, تلك التي لا تراها. و راوده إحساس غريب أن جزء من الابتعاد أيضاً كان يَصْب في مصلحته. برر ذلك في يوم رأى اسمها يتصل على هاتفه و نظر للإسم كأنه طفل غريق بلا أية وسيلة إنقاذ و يلفظ انفاسه الأخيرة. نظرة تحدي بدأت تتسلق عيناه كأنه كان يريد أن يموت كل ما يربطه بها و في نفس التوقيت يموت هو أيضاً بمثل القدر العظيم. قال لنفسه أنه كان عليه أن يبتعد لأن كثيراً من الكثير يقلل منه، و أنه لن يعلم ماذا عساه يجيبها إذ قالت

له أنها تعبت للمرة الألف. فهو أيضاً تعب. ليس ضرورياً منها لكنها ستظن أنه كذلك. و لعله يقول الصدق بغير قصد في مرة، لعله إذا سألته ما به يقول أن صوتها لم يعد بنغمات تهدئه؛ بل ذبذبات تجعله يتسآل عن سبب بقاؤه إلى تلك اللحظة. أكثر ماكان يخيف حور هو الكلام عن فريد; أمام آدم و أمام نفسها. كان الأمر يزداد صعوبة في كل مرة تترك البيت وتهرب. بضع ساعات, ثم تعود, غير مبررة, غير مفسرة الأسباب. وإذا سألها أبوها, تقول له أنها كانت في بعض من الضيق. وإذا ماسأل عن الحقيبة بالملابس; تقول أنها كانت تفكر أن تبيت عن صديقتها بعض الأيام, لكنها عادت عن قرارها. وإن سألها لماذا لم تذهب, ترد قائلة بـكل ثبات مرغم أن هذا بيتها, إن هذا وطنها. وأنه أبيها الذي ليس لها غيره في الدنيا. وفي هذه اللحظة يفتح فريد ذراعيه مستقبلاً إياها, فتهرع إليه حتى لا يأتيها أي نوع من الأفكار يجعل فريد يفكر في كذبها. وكان هذا هو ترتيب الأحداث.

تذكر آدم أن في يوم هربت حور ومعها حقيبة صغيرة بعدما قال لها أبوها أنه لايرى لها فائدة في البيت, فمشيت في الشوارع تبكي بصوت مكتوم, غير دارية نهاية أو بداية الطريق, حتى وصلت لبيت عمتها, واتصلت بـآدم. رغم أنه قال لها أن ذاك ليس بـسبب يجعلها تهرب, إلا أنه تفهم أن ذاك الموقف كان تراكمات مواقف أخرى لم تتصرف حور ناحيتها حينها. وأن أحياناً أتفه الأسباب تدفعنا إلى الإنهيار الغير مرغوب فيه, دون علمنا.

أمسك آدم بـهاتفه وقرر أن يتصل بـها فلم يأتيه رد منها, لم يعلم لما حمد ربه سراً وأغمض عيناه ثم ذهب في نوم عميق; ذاك الذي يأتي بعد جهد اليوم وانهاكه.

***

كان محب. إلى أقصى الحدود. نور كانت ما يدق بين ضلوعه و ما يفكر به في آخر يومه و ما يحمد ربه طوال الوقت عليه. وسيم و رقيق و ذي رأي فيما يخصه. يراها كأنها ذلك الملاك الذي جاء زيارة لأرض بور لا يسكنها أحد. مهجورة، ليس بها روح و لا ماء و لا هواء. كأن العالم كان مكان بارد ممل حتى جاءته حبيبته، و أضاءت العتمة الطويلة. لا يحب أن سمع أي لغو عنها؛ فإذا سمع أحد اقربائه أو أمه يتكلم عن ما قد يهز صورة زوجته أمامه، لا يطيق الشخص و لا يطيق الكلام معه، و يدافع بشدة و اندفاع. كمحامي في أخر أيام قضية أخذت منه العمر كله ليكسبها. كانت تلك الحقيقة، فزواجه من نور، لم يكن سهلاً بالمرة. عافر و قاتل و لم يستسلم عندما رفضته و لم يستسلم عندما بدت متغطرسة إلى حد ما؛ برر هو ذلك بصغر سنها، و أنها لابد أن تفعل كما يفعل من هم بعمرها. و لم تكن تلك هي

الحقيقة كاملة. محب أقنع نور بحبه بعد أن جعلها ترى أبعاد أخرى عن الحب. أبعاد لا تُحكى في الأفلام، و لا تقال في الروايات. تلك الأبعاد الصغيرة جداً و الفارقة أيضاً جداً. مثل أول مشاجرة، كيف تعامل مع غضبها. أو أول بكاء حقيقي لها من قلبها، أول خسارة و أول حالة ملل مرت بينهما. كان صارم صامد لا يهتز، يعلم بالضبط ما الذي يجب أن يفعل و ما الذي يُتجنب.

لذلك، رقصت نور معه بقلبها الرقصة الأولى و في الثانية أخذت عقلها بتأني. و حين إتفقا الاثنين أن محب شخص يستحق المعاناة المشتركة في هذه الحياة؛ فازت به.

أما مايقال عن الحب ; فذاك غير ضروري بل و سطحي إلى أبعد الحدود.

فإذا ذكر الحب , وجد محب نفسه فيلسوفاً عظيماً

ذو شأن كبير.

وكان يصف مشاعره بالمخزون الذي لاينقص ولا يفيض. يقول لها الزوج عن الحب; أنك إذا وجدت نفسك في الصحراء الحارقة في نهارها وأتى عليك ليل عتيم ولا يوجد أحد حولك, تقف لوهلة وتنظر إلى قدميك وتجد خطواتك تحددت بجانبها خطوات رفيق دربك , وإذا نظرت إلى جانبك تجد الحياة القاحلة , بلا ماء أو أصدقاء ازدادت ابتهاجا ولينا وذاب عنها طعم المرارة المعتاد لدى كل المهاجرين. وإذا نظرت إلى أعين من تهوى; تهوى. من على أعلى الجبال, تهوى لا لتسقط; بل لتستقر داخل فقاعة مصنوعة من أحبال أمل لم يزرك قط قبل هذه اللحظة. فتنغلق كل آلامك ولا يجدك أي نوع من الشقاء; الأن أنت في ارتقاء دائم ومستمر.

(ما وراء الحب)

الساعة العاشرة، محاضرة في أول خطوات الفلسفة.. أشعر بتوتر و خوف بلا تبرير سوى أنها المرة الأولى التي أتكلم فيها عن شيء انحلني قراءة و بحث. القاعة تكاد تكون مليئة بالناس و لا أرى سوى الضوء المسلط علي. لا أرى سوى وجهاً أو اثنان. أمسكت الورق لآخر مرة، قرأت ما استطعت ثم وضعته جانبا و وقفت في وسط المكان.

إذا أراد الله قلباً لقلب ألف بين القلبين «كن فيكون» و ليس لك ان تسأل عن الوسيلة. ليس لك أن تسأل عن المخطط الكبير. ليس لك أن تطلب رؤية الخطوات، بل فقط تتبعها و أنت مغمض العينين. كما كنت مغمض في رحم أمك. كما كنت مغمض الليلة الفائتة في حلمك. بكامل ارادتك تقرر أن تغمض عيناك، و في هذه أيضاً الإرادة مشروطة. لا تفكر كثيراً حين تنظر لأحدهم ثم تقول ما هذا الجمال، فبعض من ذاك الجمال فيك أيضاً لكنك لا ترى احياناً. ينظر إليك عاشقك كأنك سبب دخول و خروج أنفاسه. كأنك إذا لمسته يولد في الدقيقة ألف مرة. و إذا كان هو يعطيك نفس الإحساس، لا تتركه أبداً. لكن، يجب أن تنظر عن كثب جيداً و طويلاً لترى هيئة انعكاسك داخله. لترى كيف يراك. لترى كيف يصحو على ذكراك كل صباح و يبتسم لصورتك كل ليلة. فإن فعلت أنت بالمثل، يكن ذلك القلب لك، الذي في وقت ما قبل مجيئك لدنيا الله، أمر الخالق بـ»كن فيكون» و قد كان.

و لأن كل الأشياء التي يجب أن تحدث لنا لا تفعل ; نظن كل ظن السوء بمراحل الحياة. نظل نفكر ونتفكر ونتناقش ونحاور من يعلم ومن لايعلم عن أسباب حيرتنا وأسباب تشتتنا وأسباب كآباتنا وأن لماذا من ليس لديه شيء يرضى, ومن يتوفر له معظم الأشياء لا تعجبه احواله. فهناك نهاية لا تحكى بعد كل قصة حب. بعد الابتسامة الأخيرة وبعد عقد القران وبعد كل العهود التي تؤخذ والوعود التي تحفظ. عندما يأتي أول إعصار هدام لمبادئ كل منهما, من سيقف ويحارب؟ النهاية الممتدة, الغير مؤقتة, البلاحدود. تلك النهاية التي تجعلنا لا نمل مع من اخترناه شريك لنا بالحياه التي لابد أن تشارك. عند الصمت, هل نجزع؟ عند الضعف والبكاء, هل نهرب؟ عند الشقاء والتضحية هل نضحي؟ عند المصائب وكوارث هل نقف متفرجين؟ عند اليأس والبؤس والشرود والكلل, هل نركض بلا عودة؟ هذا هو مايحدث بعد أول نظرة حب دون أي قيود. مايترك للوقت يهدم; كالعجز والصحة المتدهورة والذكريات الأليمة.كل شيء ينسى. كل شيء لا يبقى على حال واحدة, ويعلم الزوجين هذا, لهذا يقررا أن يبقيا سوياً مهما حدث.

و الان، لنعد لصلب الموضوع؛ نظرية أرسطو الأولى..

كان محب مؤمن بالمعرفة لا بالتلقان. وكانت نور مفكرة باحثة,لا ترضى بأنصاف الاجابات. لا ترضى بأنصاف المشاعر أو أنصاف التساؤلات. كل مايحدث بالنسبة لها كان لابد أن يكن له تفسير متقن متفرع من شيء أكبر ومحبوك بتفاصيل دقيقة جداً لا يراها من يفسر كل مالا يفسر. يراها من لديه الشجاعة الكافية لأن يستسلم للجهل في بدء الأمر. الإعتراف بعدم المعرفة هو أول الطريق الصحيح للمعرفة الحقيقية. ليس إدعاء معرفة أشياء ليس لها أصل من الصحة أو الأساس.

في البدء مايبهرنا يكن الصورة لما هو امامنا. ولكنها تعلم أيضاً أن هذا حكم طفيف سطحي غير عادل للأمور. فهناك كم من الظلم الغير ضروري يحدث إذا مانظرت إلى أحد ما و قررت تحديد قيمته على حسب شكله أو هيئته أو أي شيء غير مضمونه. ولكن, نحن نعيش داخل فقاعة مكونة من الماديات التي لا تتجزأ منا ومن طبيعتنا. نتمرد لنسمو فوقها ولكن لا تتركنا غرائزنا التي تجذبنا لأسفل لتذكرنا أننا مخلوقون من طين وأن الملائكة فقط هي من خلقت من نور. كيف إذًا لمخلوق من طين أن ينجذب إلى نور دون أن يتمنى ماهو طين مثله. لذلك, يعجبنا نوع شكل وجوه معين, ونوع تجسد لملامح معينة, دون شعورنا. فكم الوجوه والتفاصيل التي نراها على مرار الأيام والشهور والسنين تجعلنا نكون مانريد داخل باطن عقلنا المعقد, فنجد انفسنا ننجذب إلى ما لم نعلم أننا نريد؛ جسداً و روحاً.

و هذا يجعل الأمر أجمل وارقى واحلى من كل الأمنيات مجمعة. كل شيء يهون عندما تكون مع من يجعلك تكون. ليس من يشكلك لتصبح مثله في صفاته وتحركاته وانفعالاته. فكل حب يجعلك غيرك ليس بحب; بل هو طمع وانانية مفرطة مستغلة, لا تعزم على البقاء, بل تأخذ كل شيء جميل في طريقها دون تأسف أو اعتذار.

تلك الافكار من جمعت بين نور ومحب. لم يفتش منهما عن الأخر; بل عاشا حتى تمددت وتعمدت ارواحهما أن تتلاقى, وغاصا معا داخل عالم متناغم من التفاهم. وإذا لم يكن محب يشاركها بعض من تلك الأفكار, لما كان لفت انتباهها منذ البداية. إنتهى الأمر بينهما عند الزواج, ذهب القلق واحتلت السعادة المكان لبعض الوقت ثم فات المزيد من الوقت, وزاد الكلام واللغو عن عدم الإنجاب, وانتظر الجميع الجواب على سؤال حير آل آدم مذ بدء الخليقة; متى الذرية؟ كانت نور تلجأ لأعين محب في كل مرة تسأل. وكان هو يقول; بين يدي الله. وتصمت بعدها الأفواه لا تنطق. فهاهو حسم الشك, وجعل كل من كان يريد معرفة تفاصيل

ليست من حقه يسكت ولا ينطق عن كيفية وجود الأمر بين يدي الخالق. فعندما تتكاثر المفاهيم ويسيطر الفضول البلا معنى على عقول الناس, لابد من اللجوء إلى طريق به حائط يمنع أي تسربات مريضة لا تأتي بنفع أبداً بل على العكس; تضر. ساد السلام وعمت السكينة لبعض الوقت حتى نسيا ما كان يشغلهما , وعاد نمط الحياة المبهج يتمكن من الأيام. وفي يوم ذات شمس ساطعة; فوجئت نور بالخبر السعيد; وهلعت لتخبر محب, وفاضت الأعين بالدمع وامتلكت الفرحة المكان. وحين نظر محب إلى نور, لم يعلم مامصدر فرحته بالضبط, الأنه سيصبح أبًا, ام لأن أخيراً سيرى نور وانعكاسها في طفل أو طفلة, أم أنه إنتصر على كلام وظنون الناس التي يأست من قدرهم ولم ييأس هو, ام أن ظنه بالله لم يخيب؟ تخابطت المشاعر والاحاسيس ولم يعلم أيهما أصدق.

أما نور, فنبتت لها جناحان, وحلقت لأعلى بهما حتى لم تعد ترى سوى خط الأفق التي طالما حدقت به طوال الليل والنهار. وظلت تحلم باليوم الذي سيجيئ صغيرها إلى هذه الدنيا. شاركها محب الصدمة, وأخيها فريد, الذي فرح كثيراً لأخته, ولم يكن من الذين يتسألون عن موعد استقبال المولود, كان يساند أخته وفقط.

ونمى جو مختلف في أركان البيت, جو يدل على حماس واهتمام. في أواخر فترة الحمل تعب وارهاق ولكن دائماً بحب ودائماً بمشاركة, نصف من محب مبادراً بها ونصف من نور مكملة لها. زادت الثقة و قوي حبل المسئولية, وكانوا جميعاً في انتظار المنتظر الصغير.

كل هذا قادهما لهذه اللحظة الأن; آدم في غرفته, نور تعمل في صمت ومحب يقرأ بجانبها. لم يشك أحداً أن شيء قد يعكر صفو الأسرة الصغيرة. أثناء صمت وفير, دق جرس الباب وقاطع الصوت قراءة محب فذهب ليفتح, لم ينبث بكلمة في البدء ولكنه اتبع الصمت بإبتسامة, وجد نور بجانبه حين ابتسمت ورحبت بـأخيها فريد.

كان فريد ساهم الوجه دون ابتسامات, لاحظت نور ذلك فسألته عن مابه. صمت للحظات ثم استرسل;

-لم تأتي حور هنا؟

-حور؟ ولما قد تأتي في هذا الوقت المتأخر؟ أليست بالبيت؟

سألته نور بقلق.

-لا, ليست بالبيت. لم أجدها حين رجعت, ولم أجد ثيابها.

كان فريد هادئ جداً إلى حد القلق. هدوء العالم أن الذي ذهب منه سيعود.

أردفت نور:

-لا يا فريد, لم تأتي ابنتك إلى هنا.

قالت نور هذا ورمقته بنظرة مغزاها أنها علمت أن هناك شيئا حدث بينهما, ليس بـهين.

سكت فريد للحظات ثم قال:

-ايمكن أن أسأل آدم؟

استغربت نور السؤال, فما دخل آدم؟

-وماذا يعلم آدم ولا تعلمه أنت؟

-أريد فقط أن اتأكد أنها لم تذهب لبعيد.

-لم أفهم, مادخل ابني أنا؟

-يمكن أن تكون قد اتصلت به..

-ولكنك تعلم أننا تكلمنا بـذاك الموضوع, وأن آدم وعدني أن لا يتدخل بينكما.

-أجل, أعلم. ولكن فقط لأتأكد يا نور.. ارجوكي.

لم يعجب الكلام نور, ولكنها ذهبت مضطرة إلى غرفة آدم حاملة تساؤلات عن ما إذا آدم له علاقة باختفاء حور.

أثناء غيابها, نظر محب إلى فريد وقال له;

-إنها فتاة, يا فريد, لا تتحامل عليها. رفقا بها فهي صغيرة, ولا تقلق أنا متأكد إنها لم تذهب بعيداً.

همس فريد لنفسه وهو نظر لأنامل يداه المرتعشة «متأكد».. وابتسم ابتسامة

مليئة بخيبة الأمل.

ذهبت نور لغرفة آدم وطرقت الباب خفيفاً, وجدت أدم نائم بلا حراك. جلست بجانب سريره ونظرت إلى وجهه بعد ثواني ثم همست;

-آدم, استيقظ.

- آدم, هل تكلمت مع حور اليوم؟

أفاق آدم بصعوبة ولم يستوعب وجود أمه بجانبه, وقال باستغراب:

-ماذا؟

-هل كلمتك حور ابنة فريد اليوم؟

جلس آدم على سريره حتى يكسب بعض الوقت,

-ما سر هذا السؤال العجيب يا أمي؟

-خالك هنا ويسأل عن حور..

-سألني إذا ما كنت تكلمت معها اليوم, قلت له أنكما لا تتكلما.

قلت له أنك إتفقت معي أنك لن تتدخل بينهما بـأي شكل.

-إذا, لما تسألني, مادمتي تعلمين؟

-هو طلب مني هذا..

-وأين حور؟

-يقول لم يجدها بالبيت ولم يجد ملابسها.

-اتعلمين ماحدث هذه المرة؟

-لا, لا لا اعلم, ولكن أنت أيضاً لا تعلم, أليس كذلك؟

سكت آدم وأتى بهاتفه, ثم اظهر لنور آخر رقم إتصل به, ذاك الرقم الغريب.

-هذا رقم لم يتصل بي من قبل, منذ قليل وجدته يفعل, كانت حور.

صمتت أمه, ثم قالت له:

-وماذا كانت تريد منك؟

-المساعدة. كالعادة.

-أتعلم أين هي؟

-لا, لم اطول بالكلام معها لأعلم.

اخذت ورقة بجانبها وكتبت الرقم, وخرجت من غرفة ابنها بـصمت.

ذهبت لفريد واعطته الورقة:

-إتصل بهذا الرقم, آدم يقول أنها اتصلت به من خلاله منذ قليل.

نظر فريد للرقم فلم يميزه, ولكنه شكر نور على أية حال.

استعد للذهاب حين قالت نور بهدوء ملحوظ:

-فريد, إهتم بابنتك; فليس لها أي ذنب فيما حدث.

صمت فريد لنصيحة نور, ثم فتح الباب ورحل.

***

مشيت حور بين أزقة و شوارع واسعة و ضيقة. سارحة بمكانها الذي لا تعلم ملامحه، كانت تائهة جسداً قبل روحاً في لحظتها كأنها تطارد شبح روحها من ظل لظل. لم يكن هناك أي سؤال يأتي لبالها سوى؛ لماذا كل هذا الجهد لأقبل؟ لماذا كل ذاك المجهود ليرضى عني من حولي أو ليحبني من هو بعيد عني. لماذا تهدر طاقتي في المغالبة و المقاتلة لأحصل على مكان في عقولهم قبل قلوبهم. و ما الذي يجعلني أستمر بالتمني السخيف أن يبقى لي مكان عندهم و لو صغير؟

مقطت نفسها و أنفاسها تركتها تلهث و ذابت عنها قدميها و باتت مفاصلها تعبث مللا؛ و زادت الآلام شيئاً فشيئاً. وجدت نفسها تعود إلى حيث أتت. بيتها الذي

يحتويها، و كل ما فيها يصرخ من عدم وجود أي خيار آخر، سوى هذا الذل المهان.
عادت و وجدت أبيها يجري نحوها بكل حنان؛ على غير العادة.

كان العناق هذه المرة من طرف واحد كالعادة; لكنه ليس نفس الطرف المعتاد.
كان فريد صادق في قلقه وخوفه. أحست حور بذلك فكاد التعب والإرهاق أن ينسيها لماذا رحلت منذ البداية. كادت أن تغمض عينيها وتبكي ليذهب عنها عبء كل مافيها. كادت أن تسأله عن أسباب ضعفه في حبها وأسباب قوته في بغضها. عن أسباب حنانه الأن, وكأن من الضروري أن يحس بـغيابها حتى يعلم قيمة وجودها؟

تململت حور قليلاً عن أبيها, فاعتدل عنها وقال:

-أنتِ بخير؟

قالت بهدوء حذر:

-نعم.

-حقاً؟

-نعم.

-تردين أن تتكلمي؟

-لا.

-أكلتي؟

لم تجبه.

-تريدين أن..

-لا.

صمت فريد وقال لها:

-حسنا, يمكنك أن تذهبي إلى غرفتك لترتاحين.

أخذت حور حقيبتها وذهبت إلى غرفتها صمتاً.

نظرت إلى سقف غرفتها وبدى بياض اللون مزعج لأول مرة. ارتمت على سريرها بغير رغبة للنوم, بل أرغمت الذهاب إلى عالم السكينة والأحلام حتى لا يتملكها التفكير المفرط في كل الأشياء التي تحدث وكل الأشياء التي لا تحدث.

و كانت آخر فكرة أتت على بالها هي كيف تتحكم فينا كل الأشياء التي لا نستطيع التحكم بها. ومتى ينتهي كل الاعتراض على كل شيء؟ لم تعلم كيف عليها أن تتقبل أن تصبر على كل الأشياء التي لا تريد أن تصبر عليها. كيف تجري مع الوقت لا بلإتجاه المعاكس. المعاكس لكل الأمنيات. التيار الذي يأخذ منا كل مانريد أن نتشبث به. لم تعلم كيفية حدوث أشياء كثيرة; ومع آخر تسرب لتلك الفكرة وجدت نفسها تسمع موسيقى هادئة جداً تطفو بها إلى سلام ماقبل الاستسلام للنوم. وغاصت غير مقاومة لتلك الغفلة الجميلة.

سكن فريد بغرفته يراجع كل ماحدث في تلك الليلة; صوته الذي كان يعلو, وعصبيته التي بلا داعي يذكر. وكيف أنه في تلك الليلة, كاد أن يضرب حور بكل عزم وقوة لولا أنها أغمضت عينيها بلا كلمة تنطق. بلا أي شيء سوى شهقات تأتي و تغيب, لعل كل هذا يختفي. لعل كل أسرار غضب أبيها تتركه وتذهب لشخص آخر, لشيء آخر, لمكان آخر. سكتت وعلمت أن كل هذا حتماً سينتهي. كل شيء ينتهي. حين رآها فريد بـذاك التصلب الغير مشهود له من قبل, تسمر في مكانه, وأشاح بـنظره بعيداً, حتى إذا أحست بـهدوء نسبي, فتحت عيناها, وسألته مرتجفة;

-يمكنني الذهاب الأن؟

-اذهبي..

ركضت حور إلى غرفتها, دون انتظار أبيها أن يكمل جملته لها.

فاضت دمعاً, وبكاء أحرق قلبها. أتت ذكرى ذهاب أمها التي لم تشهدها, وجدت صورة أمها بجانب سريرها فـأطاحت بها أرضاً. وزادت حسرتها , ليس لأنه كاد أن يضربها لأول مرة, وليس لأنه-كالعادة - أخذ يلومها على كل شيء; بل لأنها عالقة معه في هذا البيت مهما حدث. لأنها وحيدة وسط كل مالديها من رفاهية.

لم يعلم فريد لماذا أخذ يراجع نفسه هذه المرة; ربما رغبة في التغيير ناحية ابنته, لربما لانها بالفعل صغيرة على كل هذا. لربما لأنه لا يعلم ماذا عليه أن يفعل حتى

يتغير أي شيء في هذا البيت. لأنه لا يعلم إذا ماكانت حور صغيرة بالفعل, صغيرة كفاية لتنسى كل ماحدث وتبدأ معه صفحة جديدة; لايعلم.

(المثل الأعلى)

سألتني عن أسباب رفضنا لأحكام الحياة.

ماذا تعني؟

تعلمين.. الأشياء التي تحدث دون معرفتنا

قالت لي أن كثير من تلك الأشياء غير مهم

و أن «الأمر» يهمنا لأسباب أخرى غير قيمته الذاتية.

لا أفهم..

تعتقد أن ليس هناك ما يهم في المرض أو الموت

أو الهجر أو الانتظار للمجهول، و أن كل هذا يحدث لتتمكن أشياء أخرى بالحدوث؛ أشياء أهم.

مثل ماذا؟

صمت للوهلة ثم نظر إليها في تأني و قال؛

التعود.. التأقلم.

أحس بشيء من التيه في عينيها فاسترسل؛

التعود هو انعدام الألم من الشيء حتى يتجدد؛ في صورة مختلفة أو وقت مختلف.

مثله التأقلم، لكن الألم يتشكل مثلما صاحبه، لا يذهب و لا ينعدم، يتعايش مع الشخص حتى أخر العمر. أمي تقول أن كل ما يحدث ما هو إلا تفرع طرقات للوصول لهاتين الشيئين.

و ماذا بعد؟

لا شيء، و يتكرر هذا اللاشيء إلى الأبد.

فلسفة بناَءة؟

بل كلام آخر الليل.

كانت مرة من تلك المرات التي نجلس فيها سوياً مع حضرة كوب شاي و تساؤلات كثيرة لا تطرح إلا إذا عثر لها على جواب. نقرأ و نشرح و نتأمل و نتحاور.

أذكر أنها قالت لي حرفياً بعد مناقشة دامت ساعات:

ليس هناك اختلافات يا آدم؛ الانسان هو خلطة و تركيبة واحدة، نفس الأشياء لكن بترتيب مختلف، بنظام متبع معين داخل كل شخص قد بنتها ظروفه و تربيته و معتقداته. الكل يتألم، الكل يبكي و يطلب النجدة في جوف الليل. لا تقل إلا خيراً، و اشكر كل من يهب لك الحب و المساعدة دائماً. أن مللت من الحياة يا آدم، أغمض عيناك و تذكر خمس أشياء يشعروك بالسعادة و ساعد أحد في الحصول عليهم أو جزء منهم، فعندما نعطي نُكمل و تنتصر غريزة التدني لدينا و يقتل الغرور و الاعتزاز الزائف بجلد و لحم و دم يجري داخلنا و ما اخترنا شيئاً من هذا. لا أحد يختار قدره يا آدم؛ بل يُختير ليختار ما بعد قدره. الكل واحد؛ غير منفصلين داخلنا، لكن مشتتين خارجنا بالكامل.

صمتت حور لجزء من الوقت فقال آدم مفسراً ; أمي تتكلم بلغة الكتب. لهذا يصمت تدريجياً كل من يسمعها حتى يستوعب مقصدها.

عمتي ذكية للغاية وكونها أمك يجعلك فخور دائماً. أتعلم أننا نتقابل؟

لا أظن. منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه خالي, لم تسألني عنك أبدًا.

وأنت لم تذكرني؟ و لو لمرة؟

أنا أذكرك طوال الوقت. فقط ليس امامها. داخلي.

ابتسمت حور لكلمات آدم, وكان الكحل في عينيها يبرز سحر لونهما المائل للبني الفاتح كشعاع الشمس في المغيب. أخذت تلك الفكرة تسيطر على عقل آدم وأراد

أن يقول لها مايأتي بهاجسه.

كيف عساه أن يقول لها أن نظرة عينيها تنغرس كَسهم آتٍ من على بعد الألاف من الأميال لتحرق مابقي من روحه. كيف له أن يحكي لها عنً حال قلبه المسكين كلما رآها حزينة أو يائسة من حالها وحياتها. كيف يجعلها تقرأ مابروحه وعقله لها. كيف يشرح لها حاله وحال سكوته وصمته وانكماشه داخل كل طبقات مابينهما من عائلة وعرف وميثاق غير قابل للكسر أو الانهيار؟

-كيف حال أبيك؟

قالت بتلقائية عفوية كعادتها.

-كما هو, هاديء رزين بعيد.

-أنا أحب أبيك, على الأقل يحاول. المحاولة تحسب على أية حال.

-وما فائدة المحاولة دون نتيجة؟

-أليس هو مثلك الأعلى؟ كما كان دائماً؟

-أنا لم اقل هذا أبداً. هذا ماكان يقوله الجميع. بما فيهم أمي. وهي الوحيدة, التي كانت تتقاسم معي ذاك السر; إن أبي كان جزء من المعادلة, وليس له تأثير غير ذاك الظاهري أمام الجميع.

-فمن إذن مثلك الأعلى؟ نور؟

-نورهانم؟

-نعم؛ اللقب والتلقيب.

ابتسم آدم لفصاحتها الساخرة, واعتبر ذاك جزء زائد ينضم إلى أسباب سحره بها.

سألها من باب الفراغ من الكلام ومن باب التساؤل المتبادل;

-وهل أجد لك مثلاً أعلى؟

-نفسي. أنا لم أعلم غير نفسي.

انكسر قليلا داخله, كان يتمنى أن يذكر اسمه بين ثنايا حروف تنطق خلال انفاسها, ولم يحدث. فسكت; كما يفعل دائماً.

نظرت له في اريحية ثم قالت:

-شكراً يا آدم. على كل شيء.

- أنا لم أفعل شيء يستحق الشكر يا حور.

-مامن شيء يستحق الشكر غير كل مانظنه لا يفعل. أنت دائما بجانبي وهذا يسعدني. وأتمنى أن لا أكون عبئاً على صدرك بكلامي لك في معظم أوقات سقوطي.

ليتها تعلم مكنونتها في صدره. وإن علمت لن يكون أي شيء كما هو الأن.

-وأنا سعادتي من سعادتك يا حور.

قال هذا ونظر في ساعة يده ليشعرها أنه يجب أن يذهب. حتى لا تفكر في كلماته ونواياها. فأردفت :

-علي أن أذهب أنا أيضاً. أبي سيقلق إن تأخرت.

-نعم, أتفهم.

-آسفة إني جئت بلا ميعاد لألقاك؛ كان لابد أن أفعل.

-لا تتأسفي; أنا أيضاً كان لابد أن أراك. لم أعلم كيف أصل إليك بعد تلك الليلة.

-لهذا جئت بنفسي عند مكان وحدتك. فقط عندما لا أكون هنا يصبح كذلك.

ابتسم آدم ولم يعلم مايقول لها. لكنه كان يعلم تماماً مايجب أن يقال داخله.

ولأنه لا يملك أن يعترف بـشيء من احساسه, صمت. و تركها تذهب, ثم أغمض عينيه و ذهب بعقله بلا عودة لعالم الحقيقة؛ فلا حقيقة بدونها.

آدم يحب؟ و لكن ماذا يعلم هو عن الحب؟ ماذا يعلم أي أحد عن الحب. فهو ما إلا مشاحنات متصادمة تتصارع داخلنا مجهولة المصدر جزئياً. فنحن نعلم مصدرها المسمى بالاهتمام المتبادل، و المسمى بالتقدير و الإخلاص، و المسمى بالأشياء التي نبحث عنها في شريك حياتنا؛ و لكن يبقى جزء غامض نستمد منه طاقتنا على الحب، ذاك الجزء البلا تفسير، الذي عندما لا يكون هناك اهتمام، و لا تقدير ولا أي شيء مما نبحث عنه في من أمامنا، نظل نحب.

لم يفهم آدم حقيقة شعوره وكان ذلك أغرب من تعايشه مع الأمر.كان ذاك جديد عليه; فهو لم يعلم سوى نوع حب واحد واخير; حبه لأمه, وحبه لخالقه. حب مطلق مليء بالشك الذي يعقبه أبواب حب أخرى تريد الوصول لمراسي المعرفة برغم مايشوبها من نقاط سوداء تعكر صفو مياه العطاء البلا تفسيرات. وكل الذي لا يسمح به داخل الحدود يجعلنا نريد اكتشافه أكثر دون هدف معيَّن غير الاكتشاف بحد ذاته. فالأمر إذا لم يمنع, لايرغب. وكان آدم يعلم أن حور ممنوعة; كتفاحة معلقة على شجرة عملاقة جذورها مغروسة في عدن واوراقها تصل إلى مابعد السماء, وكان هو الغريب التائه في بلاد معرفتها. كل مايمتلكه هو الصمت, وكل مايتملكه هو العشق; وغرق هو فيما بينهما.

****

كانت حور تكتب عن آدم و عن ما تشعره تجاه آدم. كأن شيئا يتغير عندما يلتصق تكوينه على الورق و كان ذلك يريحها. كثيراً. أمسكت بالهاتف و صمتت للحظات قبل أن تنبث لنفسها؛ ربما علي أن أتكلم، كأني أحكي له، لكن لا يسمعني، بل كأنه يسمعني بل لا يعي.

بدأت بالتسجيل. و أحست بشيء من الخوف الممزوج بالحزن العميق و ذهبت أول ثانية.

«...كل الأشياء التي تفقد الحياة لا تعود مرة أخرى. كمثلاً أول عدم رد رسائل كانت تحمل معاني و نبضات، كمثلاً انتظار مأهب لصباح خير أو مساء خير أو ليلة سعيدة. الإفراط في البخل، موت. و أنا لست من هواة الموت كثيراً إلا أنه يأتي دون إنظار مسبق. أنه إذا إطمئَن القلب، ستجد العقل يجعل من الوقت دمية. و الخيوط هي وهم الإيمان أن كل ما حدث في الماضي لن يتكرر و أن النمط سيختلف و أن البحر به الكثير من السمك. و هو يحب السمك. و عليكِ أن تعيدي التفكير لأن الذي لا يختاركِ لا يستحق أن تختاريه أولاً. و أنه إذا سألوكي على استحياء

مفاجئ لأي مدى تريدينه ستقولين إلى مداه الذي يريدني فيه. ووقتها ستعلمين أن العالم لن يفيق لأنك استيقظتي على خيبة أمل غبية. و إذا سألوكي مرة أخرى كيف تشعرين، سيكون ردكي بالفراغ. أنك لست سعيدة و لست حزينة. لست متشائمة أو متفائلة أو ينكسر قلبك دون سبب أو طلب. أنكِ لا تتمنين أن يكون له عذر، أنكِ ستقبلين العذر أينما كان. وقتما كان. إنه الوحيد الذي علم كيف يفتح بابك و أنكِ واربتيه حتى يستأذن. إنه استأذن. و ترددتي بالبقاء. أقنعك هو. ثم ذاب. ثم غاب. ثم لم تبك. ربما لأنك تعودتي. ربما لأنك فهمت أن لا أحد يعد أو بمقدوره أن يعد بالبقاء. فتكتبين رثاء. لنفسك أولاً ثم له. ثم يقول إن العالم مزدحم. ثم ينسى. ثم يشتاق إليك. ثم ينسى. لكن تتذكرين أن العالم مزدحم بالفعل و أن يومه قصير جداً و بعض الدقائق لن تكفي أو ربما تكفي و ربما ترضيكي و ربما ستتقبلين أنتِ الفكرة أن إذا أراد القلب أحداً بشدة يتخلى عن بعض حجراته و أنكِ لن تحزني و لن تفتقري شيئاً أو تفتقدي شيئاً طالما هو معك. يكفي الوقت المسروق بين أصيل الصباح و الفجر. يكفي أن يشعرك أنه ينتظرك. ذلك الوهم بالاحتياج له طعم آخر. غريب جداً. غير مألوف بالمرة. كأنه مفتاح الصبر. و الصبر مفتاح الفرج و الفرج بين اهتمامه ثم رؤيته ثم الإحساس بالأمان في حضرته ثم زيادة الأمر عندما يمسك بيدك و يربت عليها فينسحب العالم كله من داخلك أولاً ثم خارجك و لكن، هذا لم يحدث بعد.. كل ما حدث هو ما قبل ذلك و أنتِ طماعة جداً، و انانية إلى حد مسموح به؛ كمعظم البشر أو أكثرهم. لأنك تريدينه طوال الوقت و هو يملك فقط نصفه أو ربعه أو هامشه؛ و سترضين و ستجدين الرضا أقصر و أطول الطرق إلى قلبه. و أن العالم لم يعد له قيمة إذا غاب هو ربما. تدركين أنكِ تهذين. ثم تهذبين نفسك. لا يجب أن تريدي أحد قبل أن يريدك هو. لا يجب أن تطالبي بالاهتمام إذا رؤى ذلك بزاوية أخرى. المهم إن كل ذلك لا يسمى بالحب. و لا ينطبق عليه قوانين الحب لا من قريب و لا من بعيد. و أنكِ لن تلوميه إذا عاد من الأموات، لأنه قال لك؛ لست متفرغاً. لست جاهزاً. و رضيتي. كيف لا تفعلين و كل ما بك ينتظر من سنين. نصف الأمل أمل. فتكتشفين إنك كنت في وهم مهين. و أنه لا يرى و لا يعلم و أن الشجاعة هي أن تخسري كل ما أردتي و تقفي مستعدة لضربات أخرى. و أنه إذا عاد. و اعتذر و قال عذر، لن تعلمي الحق من الباطل و لكنك.. ستصدقين لأنه لا يكفي أن تقولي أن الموضوع إنتهى.

***

في العشق

يلتف المعشوق حول العاشق في خوف و تأني.

ينتظر الغير منتظر و يرى الأسباب أسهم من نور،

تقع مع كل دعوة للاستمرار. تختفي المخاوف مع أول نسمات التأكيد. كلمات الحب لا معنى لها دون اهتمام و تقدير. نرى المشاعر أمامنا تتفاقم و تدور بنا الحياة دون شعورنا. تخدير القلب لا يوصف، و العقل يستجيب. أحب الحب إلى الوجدان، هو الحب المتبادل. لا يضاهيه عشق مرموق و لا عشق ناقص.

ابحث عن الحياة فيمن تحب، فإن لم تجد الصمت أحلى الحالات في حضرته؛ فليس ذلك نصيبك. تكاثرت تلك الأفكار حول عقل آدم, وظل يغوص أكثر داخل التساؤلات; مانفع حبي لها إن كانت لا تشعر به؟ وإن كانت تشعر به, مانفعه إذا لم تقبله؟ زارته الكآبة وانطوى داخل نفسه. أرغم نفسه على تجاهلها حتى النسيان. ادمنها وأدمن التفكير بها حتى الحرمان. قرر أن يلوم نفسه على مادفعته إليه نفسه دون شعور. وانتهى من إيجاد أسباب لإحساسه فذهب عنه الوجع. ذاك الذي يأكل قطعة من الوجدان كلما تذكرها. دائماً كان يتذكرها وقت السعادة; كأنه كلما كان سعيد ينقبض لفكرة أنها لا تشاركه الفرحة. أو أنه لا يجب أن يسعد بدونها. كان يتذكرها رغم قسوتها. رغم ابتعادها الذي كان معظم الوقت غير مقصود. تاه هو في دوامة المجنون الباحث عن باب لم يبنى بعد.

***

للحظة, نظن أننا نتحكم ببعض الاشياء التي من المفترض أن تجعلنا سعداء. نظن, أن الحياة عند قدمينا, منتظرة ما نتمنى. لكن أحياناً، تتآمر أجزاء جسدنا علينا؛ فترفض رئتينا الهواء. و العين تتجمد فيها الدماء فلا دموع تذرف، و القلب يرتعش في مكانه فيبكي و يدمي خوفاً و رعباً و شجناً و ارتعاباً، أن تكون هذه النهاية. فلا شيء ينفعنا عندما تأتينا النهاية. أصدق أوقاتنا هي عندما نكون على هاوية خسران كل شيء كان ملكنا، أو ظننا أنه ملكنا. عندما نتشبث بأضعف حبل فنقع في غفلة. نقع في مستنقع الندم. نقع في ضعف يليه ضعف. أحقا الإنسان ضعيف؟ نعلم أنه قد خلق ضعيف، لكنه مع مرور الوقت أيبقى كل شيء أقوى منه؟ و يضعف هو أكثر مع تملك كل شيء منه؟

يتملكه الغرور، ثم يظن أنه يعي فيتملكه التحكم ثم السلطة ثم التكابر ثم السخط فالظلم فالاعتلاء. يظن أنه بيده الدنيا، و هو الذي بيدي الدنيا. تحركه كيفما شاءت. تقول له أن المال هو القوة. تقول له أن الجمال هو الوسيلة. أن الحب لا يأتي بغير ثمن. أن الحرام تحلله الغاية. تقول له أن التهاون في بعض الأمور من عزم الأمور. إن الأشياء الصغيرة لا تعني شيء أبداً في هذا الزمن. أن أحداً لن يُلاحظ، و أن الحاجة تبرر كل هذا. الدنيا، تسحب الإنسان من الفضائل للرذائل. تجعل عيناه تحمل أماني كلها ذات صلة ببعضها؛ فالمال يأتي بالتفاني في العمل، و الجمال يأتي بالتفاني بجمع المال، و الحياة حلوة جميلة زاهية؛ كأنها جنة على الأرض! كأنه يمشي بلا قلق، يملك كل الأسباب بين يديه! حتى تقف في يوم رجليه. أو يقف عقله، أو تتباطأ دقات القلب الطموح. ربما يبقى الأمل، لكنها الأن تقع. و تمتلئ الأرض بلون الدنيا الزائف. تتجرد من صورتها الحلوة و روائحها العطرة، لتأتي لاهثة إلى قدمي المؤمن. تصرخ بصوت مبحوح؛ لماذا لا تريدني؟! كيف لا تجري وراء رغباتك لدي؟ و كيف تقف بلا حراك عند أوقات الهلع؟ المؤمن لا يهلع. ولا يكذب. و لا يخاف من مخلوق. و الدنيا ما هي إلا مخلوق. له غاية و سبب ينتهي بمنتهى العمر. ينسى ابن آدم أن لها عمر مثله تماماً، و قوتها تضعف مثله تماماً. و المؤمن يتجرد من كل ما فيها، لأنه يعلم أنها لا تعد بشيء يبدأ و يجيء؛ ينسى ابن آدم أنه في معظم أوقاته ضعيف. و المؤمن هو الأخر قد خلق من طين. فلا تفضُل لأحد على أحد غير بالعمل الصالح. و الكل قادر أن يكون صالح. الكل قادر أن يتخلى عن الدنيا.

و لأن آدم كان يعلم تفاصيل يتغاضى عنها العامة, لم يبهره أحد دون أمه. و المثل الأعلى لديه يتلخص في كلام نور وضحكة نور واستسلام نور لأشياء ماظنها تستسلم لها. علمته كل مايحتاج أن يعلم بالمواقف. وكانت إذا تألمت أحس بها. إذا حزنت إنتبه حتى لو كان غارقا في نوم عميق لا آخر له. وكلما كان يكبر كان يتشبث أكثر بها. علم, أن ليس هناك وطن غير في أحضانها. كأن العالم يذوب ولا يتبقى منه شيء إلا عندما تطوقه أمه بذراعيها.

ينتمي إليها إنتماء كامل. لا يأخذ منه مجهود ولا تعب. يصدق أنها هي المنتهى لكل القوة الفعلية التي سمح بها للبشر. فهي الباحثة, وهي القارئة, وهي العالمة, والمؤمنة والمتشككة والطموحة, يراها بكل اشكالها ويأخذ مايريد والذي يناسب تفكيره ويحتفظ بالبقية لوقت آخر ربما. لا يستطيع موافقتها دون مجادلة; ليس عنداً منه بل فضول لما قد يدور بـبالها وما تكون ياترى وجهة نظرها. دائما ماكان يراها منكبة ومنهكة من عمل لا ينتهي لأنها لا تريده أن ينتهي. هي لا تلقى نفسها

سوى أثناء عملها. وكتبها. وكل مايخص عقلها.

دون أن يشعر وجد نفسه يصبح جزء لا يتجزأ من أمه, مصدر الهامه والهائه. كانا يتفاهما دون الحاجة للكلام:

-ماذا تقرأين؟

-الإغواء الأخير للمسيح.

(يذهب عنها صامتا.)

أخذ مابقي من روحه في المكان وذهب, الآن هي ليست في إفاقة. هي في غيبة المعرفة الدنيا. تتلقى من سر العقول مايسمح وتترك مايجب أن يترك. وحين وجدها غير ناظرة له علم أنه عليه الذهاب بلا ولا كلمة.

فأحياناً, نضطر للذهاب في صمت غير مفهوم بـرغم كل الكلام داخلنا.

إذاً هو يحمل ما تبقى من حلمه, وزنه الذي كان يثقل مع كل خطوة,

كلامه الذي لا ينطق كان يصرخ.

تقول أمي إن كل الأشياء التي تذهب منك, تعود على هيئة أشياء أخرى. كل الوقت الضائع, لا يضيع. كل ألمك ينفجر كنور في آخر النفق.

هناك نفق, واسمك منقوش على الجدران.

تقول إن الحزن لا يأكل مبتسم, والخسارة تحتاج حسرة لتتفاقم.

وأنت منبع كل شيء.

فإذا أغمضت عينك وزارت نسمات باردة جلدك, واستسلمت لفكرة أن الاضطرار لإقناع أحدهم بالبقاء يعني أنه غادر, ابتسم.

فمن يريد مغادر؟

كن أنت الثابت الوحيد لنفسك.

لعظامك , لعظمتك.

لجسدك وروحك وحلمك.

تقول لي أمي; أنت تقدر ولن تهزم.

لن تهزم.

أود أن أقول لها بالمقابل:

لم اعد أقدر, لم أعد شجاعاً يا عزيزتي. أنا منكسر بالكامل.

***

كانت إذا غربت الشمس, ترتدي ما يلبس للرياضة و تركض, تلاحق آخر خيط نور في الأفق, حتى تفقد نفسَها و قلبها يكاد أن يتركها و يذهب. تتزايد الطاقة داخلها، فيكُن لابد لها من طريقة لتتخلص من الشحنات السلبية. فتعود للبيت دون تفكير فيما حدث أياً كان. و أكثر ماكان يضرها ويجعل منها دمية بلا حراك هو التفكير بالمستقبل.

***

عادت من الخارج واستعدت للاسترخاء. ابتسامة على وجهها ترقد و هي على ظهرها ناظرة لأعلى غرفتها. جاء في بالها آدم فانكمشت الابتسامة وحال مكانها خيبة الأمل. وقررت أن تبعث له بـرسالة ما أو كلمة ما أو أي شيء. لم تفعل.

ألقت بالهاتف بجانبها والتفت لناحية أخرى, هاربة من سراب الأفكار الغير حقيقية. ذهب بها عقلها إلى طريق نوم عميق, وإذا هي تنغرس في عالم الأحلام سمعت صوت رسالة يرن.

كأنه هو.

(لن أنسى)

شئت أم لم تشأ. ستدور الأيام دورتها و يحين دورك في أقسى ميعاد لك معها. ستظن، أن لابد أن يكون الموت قريب جداً الأن، و تكاد تقسم أنك تشتم رائحته المشهورة. كل شيء على ما يرام، ما دامت كل الأحبة على ما يرام. كل شيء سليم و منظم و مدروس و مرتب إلى درجة الإعياء. إلى درجة الشك؛ كأنك وسط هدوء بالغ الصمت في وسط محيط معروف بالغدر، و لا يسعك التصديق أنك بأمان، ثم على غير ترتيبك، يبلعك حوت ضخم يجعل كل الأنوار داخلك و خارجك تختفي، و لا تعلم أين المخرج و لا كيف الوصول.

نور، من زكام طفيف في ليلة "الإغواء الاخير للمسيح" إلى زيارة لطبيب الأعصاب، إلى علمها بتشخيص بما يسمى بمتلازمة غيلان باريه، إلى اكتشافها أن جهاز المناعة لديها، بدلا من أن يحميها، هاجمها. و هذا ما حدث. دون تفسير و دون أسباب. ماذا بعد؟ لا أحد يعلم.

عادت للبيت في يومها المشؤوم غير متزنة لعلمها بالأمر و لحسن الأمر لم يكن آدم أو محب بالبيت. و قامت بالدور الذي تجيده، حرفتها؛ بحثت عن هذا المرض و أسبابه و أعراضه و أوقاته و نهايته.

ظلت تقرأ و تقرأ حتى سئمت القراءة. حتى غاص بها قلبها إلى أدكن الأماكن رعباً، حتى وجدت نفسها فجأة؛ في بطن الحوت.

غيلان باريه؛ أعراضه, هي الشلل المتدرج وفقدان القدرة على السير أو تحريك الأطراف، وأحياناً الموت. هذا المرض العصبي يؤدي في الكثير من الحالات للشلل وفقدان القدرة على السير. أسباب انتشار المتلازمة المؤدي للشلل ما زالت مجهولة تماماً كما هي طريقة الإصابة به. الشفاء الكامل للمصابين بالمتلازمة يعد أمر شبه مستحيل؛ حيث لابد أن يترك آثار جانبية على المصابين به، خاصة في النطق أو الحركة والمسير. انتشاره يكون بشكل سريع في الجسد خلال أيام أو أسابيع عقب إصابة الأجزاء الأولى منه بالشلل، وقد لا ينتهي المطاف بالشلل الكامل فحسب، بل يتعداه إلى شلل في الجهاز التنفسي والوجه.

هذا ما اكتشفته نور. و لم تصدق ولا كلمة.

شلل؟ أنا لا أشعر بأي نوع من الشلل. كان فقط زكام. نعم زكام و ألم بالمعدة مثل كل الناس. أيعقل أن يأتي الشلل لكل من يشعر بالزكام؟

ظلت نور محدقة إلى شاشتها حتى دخَل آدم البيت. عاد لتوه من مشوار ما.

ابتسم حين رأها وجلس بجانبها ثم قبل وجنتيها وسألها عن حالها.

-بخير.

-كان اليوم طويل! أخيراً وصلت البيت.

لم ترد نور. لم تكن معه.

-أمي؟مابك؟

-لا شيء. إذهب لترتاح في غرفتك. الأكل سيجهز بعد لحظات.

لاحظ آدم شيئاً غريباً في عيني نور ولكنه ذهب عنها ودخَل غرفته.

***

في اليوم التالي; استيقظ آدم على ضجة خفيفة أتية من باب البيت. وجد أمه تستعد للخروج, كان هذا يوم جمعة, وكانت الساعة التاسعة صباحا. كاد أن يسألها أين هي ذاهبة في تلك الساعة, لكنه لم يستطع اللحاق بها. فقرر أن ينزل من البيت ويرى أين تذهب.

مشي آدم بسيارته خلف أمه بحذر حتى لا تراه. وقفت نور عند عمارة قديمة, تعتليها لافتات كثيرة لعيادات أطباء متعددين. انتظرت لثواني أمام العمارة ثم دخلت. انطلق آدم بسيارته أمام العمارة فوجدها على بعد خطوات من عيادة طبيب ما للأعصاب. وأخذ عقل آدم في طرح جميع الأنواع من الأسئلة.

بعد نصف ساعة عادت نور لسيارتها وانطلقت إلى بيتها ثانية. عاد آدم إلى البيت ولكنه لم يعود للشقة. بقي في السيارة. يعلم أنه في أي لحظة ستتصل نور به لتسأله أين ذهب. فكلما كان هو خارج البيت وهي ليست فيه, كانت تتصل. انتظر آدم طويلاً. ولم تتصل نور. بقي آدم داخل سيارته بضع ساعات, ولم تتصل به نور أبداً في ذاك اليوم. فعاد إلى البيت.

وجدها في حجرة المعيشة, والتلفاز بصوت عال. لم تحب أبدا نور الصوت العال. فدائما ماكانت تتشاجر معه أو مع أبيه إذا كان صوت التلفاز عال. كانت أمام

الشاشة, لكن كل تعبيرات وجهها عكست عدم حضورها; لا في نفس مكان التلفاز ولا في زمانه.

-لم تتصلِ بي كما في كل مرة..

بعد صمت ردت عليه:

-أنت لست بصغير.

-أين ذهبتي في الصباح؟

-أشتري بعض الأشياء للبيت.

-وأين هي الاشياء؟

نظرت له نور في خوف طفيف:

-ارجعتها. لم تعجبني.

لم يجادلها آدم. أحس أنه لسبب ما قد يتعدى على خصوصيتها. ولم يحدث ذلك قط.

غاب آدم داخل غرفته لفترة. قد تكون جاوزت الساعة ونصف. نور بقيت سارحة مفكرة غير مستوعبة. احتواها الرعب الجسدي فصارت يداها ترتعش بغير قصد منها وهي بالمطبخ. آدم كان يحلم. حلم مربك، أوقعه من على السرير ثم أحدث ضجة إثر سقوطه على أرض الغرفة. فجأة سمع صوت تكسير زجاج محطم، أسرع إلى المطبخ، فوجد نور واقفة مذهولة و زجاج الكوب على الأرض و يدها مثبتة مكان الكوب في الهواء. أعصابها لم تساعدها فانساب الكوب انسياب الماء بين أحجار الجبال. دموع نور انهمرت بهدوء، إندهش آدم طويلاً، ثم دون أسئلة إحتضن آدم أمه و بكائها الذليل القوي المنتظر. الكتوم المكتوم.. لذلك القدر المحتوم المكتوب، لا رجعة فيه الأن. وكانت تلك أول خطوة على الطريق.

***

في بداية اليوم التالي, كان آدم مستيقظ في الصباح الباكر على غير عادته لانه لم ينم في الليلة الفائتة. صارت الأفكار تتسرب والاستنتاجات تأخذه من باب إلى آخر دون

علمه بـأي تفاصيل. بهدوء ذهب إلى غرفة أمه وأبيه حتى سمعهما يتهامسان;

-هناك مؤتمر في النمسا. يريدوني أن أذهب.

قال محب لنور وهي تساعده في ارتداء ملابسه.

-مؤتمر؟

-نعم.

صمتا الاثنين وظلا ناظرين لبعضهم البعض للحظات.

أمسك محب بيد نور واجلسها قائلاً.

-أعلم أنه مفاجئ. وأنها المرة الأولى التي أسافر فيها وأتركك وحدك. لكن أنتِ تتذكرين كيف كنت أتمنى تلك الفرصة من سنين.

لم ترد نور عليه. فقط نظرت إلى يدها خوفاً من أن يلاحظ رعشتها بين أنامله.

تمالكت قوتها وابتسمت وقالت:

-متى؟ متى ستسافر؟

-غداً.

-غداً؟!

لاحظ محب مفاجأتها فأردف:

-كان علي أن أقبل أو أرفض في لحظتها. كان علي أنا أتخذ قرار.

-ولكننا نتخذ القرارات سوياً دائماً..

-اعلم, لهذا جئت أقول لك, فإذا وجدتي عدم الراحة في قراري, سألغي السفر.

سكتت نور للحظات وظلت شاردة في ملامح زوجها. شردت طويلاً جداً كأنها تراه للمرة الأولى. وحاولت, حاولت أن تمنع دموع حاربتها لتتساقط من أعلى جبينها لتقع على يد محب. ولم يفهم محب.

-نور, سألغي السفر. ليس عليكي أن تفعلي هذا لأجلي. سألغي السفر.

-لا, أنا بخير. أنا فقط.. هذه أول مرة لا تكون دائماً بجانبي ولذلك حزنت. إذهب أنت وحين تعود سأكون هنا, بإنتظارك. متى ستعود؟

-بعد اسبوعان. فقط اسبوعان, أعدك.

-حسناً إذنً, اسبوعان.

صمتت لوهلة, وابتسمت له حين سألته;

-أستذكرني وأنت هناك؟

-وكيف انساكي؟

اعطاها قبلة توحي صدق قوله واحتضنها بـامتنان لتفهمها.

وتوقفت نور عن التفكير. وتمنت أن تتوقف كل أشياء حولها في تلك اللحظة.

عاد آدم لغرفته, وهو يتذكر ماقالته له أمه الليلة الفائتة:

-لا أحد سيعلم ماحدث. لا أحد سوانا.

وأخذ منها نظرة لم يرها من قبل.

كأنها تستغيث به أو تهددته. لا يعلم مابها. لا يعلم ما إذا كان مابها سيستمر. لا يعلم وأرهقه عدم علمه كثيراً. ود لو يسألها أو يقول لأبيه فيرغمها على الكلام. ود لو ينقذها مما هي فيه ولم تكن بيده حيلة سوى أن يصمت. أن يصمت ولا يقول أي شيء. كما وعدها.

ذهب محب إلى عمله ووجدت نور آدم في المطبخ يشرب القهوة. بدى عليه عدم الراحة, لكنها سألته:

-نمت جيداً؟

رمقها آدم بـنظرة استكشافية لعله يلاحظ عليها شيء غريب يفهمه:

-لم أنم منذ البارحة يا أمي.

-لماذا؟ ماذا كان يشغلك يا ترى؟

-كل شيء حدث البارحة..

تجهمت نور وتغيرت ملامح وجهها عبساً ولم ترد عليه.

تركت نور المطبخ بغضب طفيف حول أن يتفاداه آدم بقول:

-أريد أن أفهم يا أمي..

ذهب نور إلى عملها وتركت ابنها في تساؤلاته, وكانت آخر ماقيل صباح ذاك اليوم من آدم لنور هي تلك الجملة; أنه يريد أن يفهم.

في العمل، كانت قد بدأت في كتابة مقال جديد سينشر في صحيفة عربية مشهورة و كان قد طلب منها أن تكتب عن الصراع ما بين حب النفس و استسلامنا لاحكام الحياة حولنا و أنه ما إذا كانت النجاة على حساب شيء آخر نوع من الانانية أو الطمع. كمثل؛ إنقاذ شخص من الموت مع فرصة موتك أنت أيضاً و كيف يتركنا الاختيار ما بين حدين السيف.

بدأت بجملة؛ كل الأشياء تقع حين نتوقف عن إدراك سقوطها.

تذكرت آدم و هو يقول و هو يتوسل أن يفهم و أنها لا تريد أن تُنقذ إذا كان يعني هذا دماره.

أكملت المقال قائلة؛

إن كان الممر الوحيد للنجاة هو إغلاق العين و القفز من على أعلى نقطة موجودة في الجبل و هناك شخص آخر ملفوف بحبل و ذاك الحبل موصول بك، لا تقفز. و إن كان عليك أن تفعل، فلتفلت الحبل أولاً. لا يجب أن نأخذ في طريقنا من يتمنى عيشنا و نحن في داخلنا نجره إلى هلاكه.

-نور، أنهيتي المقال؟ اليوم يجب أن يُرسل.

يقول لها رئيسها في العمل و هو مار بمكتبها.

-للتو انُهيه الأن، لا تقلق.

يتبع كلامها بإماءة و يذهب في طريقه منادياً على شخص في آخر الغرفة.

...كل الأشياء التي تنتهي لا تعود للحياة مرة أخرى. لذلك، الحذر مطلوب و الخوف إن لم يسري في خطواتنا نصبح غير قادرين على استمرارية الحياة دون أن نعتمد على شخص آخر أو كيان آخر لينقذنا من نيران أنفسنا.

النجاة الوحيدة الضرورية هي نجاة احساسنا بالامان. و إن غاب هذا عنا فلا شيء يبقى حتى و إن احتفظنا بكل حواسنا مجمعة؛ الموت الحقيقي هو موت الإرادة بالحياة....

***

"إننا لا نرى الأشياء مُشوّهة عن أصلها فقط.. و إنما لا نراها إطلاقا .. و أحياناً يكون ما نراه لا وجود له بالمرة.." — مصطفى محمود

قلوبنا و خوفنا ليسا ملكنا. و أكثر رعب ينحصر في المستقبل، خصيصاً لو صار حاضرنا ينتهي كل يوم جزئياً دون وجود أي حل في ايدينا. صارت يداها ترتعش أكثر و تضعف أكثر كل يوم يمر عليها. و حين جلس آدم دون ولا كلمة أمامها منتظرها أن تتكلم، أن تقول ما حدث, أن تبكي أو أن تعترف بأي احساس، سكتت. و كاد أن يواجهها أنه رآها داخل تلك العيادة و أنه من الطبيعي أنها تأخذ علاج أياً كان ذاك المرض، و لكنه لا يراها أبداً آخذةً أي نوع من الأدوية. و لم يعلم شيء عنها، و لم يقدر أن يعلم المزيد؛ لأنها كانت قد عادت إلى حياتها الطبيعية من عمل و بيت. و كاد أن ينسى الامر، كاد أن يفعل حتى في يوم رآها أتية من عملها ثم دخلت غرفته و وأغمى عليها. في وسط الغرفة.

حين هلع آدم و كان قد استعد أن يطلب الطبيب سمع صوتها؛

- لا تطلب أحداً.

نظر إليها في استغراب و دهشة و فرحة أنها أفاقت ثم قال؛

- علينا أن نطمئن!

- إطمئن. أنا بخير.

- غير صحيح. غير صحيح، لست بخير.

و صار صوت آدم أضعف في تلك المرحلة.

فأحنت نور يدها على جبينه و ابتسمت؛

- بل صحيح. أنا بخير يا آدم.

استقامت ببطء حتى اجلسها على السرير ثم قال بحذر:

- رأيتك يا أمي تذهبين ذاك اليوم.

صارحيني أرجوكِ..

تقلصت ابتسامة نور تدريجيا و نظرت إلى الجهة الأخرى صامتة ثم أرجعت رأسها بتردد غير عالمة ماذا عليها أن تقول.

أي يوم؟ تظاهرت بالبلاهة و بدأت بلمس أشياء حولها لتشتت الأمر و أن ربما يتوقف آدم عن الحديث أو عن النظر إليها كأنه يتهمها أو أنها غير صادقة لا في غضبها ولا ليتها ولا كذبها الأن.

لم يطل الأمر. حكت له كل شيء. عن نوع المرض و أسبابه و مراحله و لكنها لم تقل له عن نهايته. أعطته أمل أنه يأخذ وقته و يذهب عن المريض فليس عليه أن يقلق أبداً.

سادت لحظات صمت بينهما و تماسك آدم بكل ما لديه من قوة و عزم تطلب من رجل في تلك الأمور.

و كان الجو بارد في الغرفة و عيناها لم تتوقفا عن التمعن بولدها. جلس آدم بجانبها و أمسك بأنامله أطراف يدها ثم نظرت إليه و قالت؛ «ماذا؟»

سكت للحظات ثم قال لها

-ألا تمر عليكي أوقات تخافين فيها؟

أمسكت بيده و قالت له أن يقترب، صمتت لوهلة ثم قالت:

-من ماذا؟ أخاف من ماذا؟ المجهول ام وقت لا أملك حدوثه؟ اسمعني جيداً، و انتبه لما سأقوله لك، ربما لا تسمعه من أحد غيري؛ أبداً، بحياتك، لا تجعل شيء أو أحد يتملكك. لا تعتمد على شيء كلياً و لاً تحتاج أحدً كلياً. أنت خلقت لتتحرر. أنت حر باختياراتك و بما تفعل كل يوم.

أشاح نظره بعيداً كأنه يعلم أن أمه تكون فلسفية في أكثر أوقات ضعفها، أكملت نور كلامها دون انتباهها له و قالت:

-انا لازلت أعي لما أقول، لا أهذي ولا أقنع نفسي بأشياء ليس لها وجود، ما أنا فيه ما هو إلا..

-ما أنت فيه ليس عدلاً.

قالها بحزم كأنما لم يسمع ما قيل قبله. نظرت له نور بشرود و صبر. أكمل آدم حديثه متردداً ؛

-كيف يكون عدلاً و أنتِ التي كان لديكي كل شيء، و في لحظة ما فجأة إختفى كل شيء

- لا شيء يختفي فجأة، نحن نتعامل مع حدوث الأمر كأنه لا يحدث مع غيرنا و عندما يقرع بابنا نهلع؛ كأننا لم نكن نعلم بوجوده. ما يحدث لغيرنا يا آدم من مرض أو موت أو عجز لا يعنينا إلا عندما يأتي علينا الدور، و حتماً سيأتي علينا الدور. لسنا متفرجين في مسرحية تنتهي دون أن تلمسنا أطرافها. لكننا نتأقلم. و كل شخص يتأقلم بطريقته و هذه هي طريقتي. أنا لا أخسر إلا إذا ماتت كل حيلي. و مصدر حيلي هو أنت، فطالما أنت هنا، ممسك بيدي و أحس بك بجانبي، أنا فائزة. لربما تظن أن كلامي كلام رضا القلب و الروح، لكنه في الحقيقية تمرد على الخوف الشنيع؛ الخوف من المستقبل الذي يجعلنا ندور في دائرة الأسئلة عن ماذا سيحدث غداً حتى يمر بنا أكثر من مائة غد دون أن نعيش.

ابتسم آدم بخيفة لحديث أمه، و اقترب منها ثم وضع رأسه قرب نبض قلبها، عيناه مفتوحتان. لا يقل شيئاً حتى احتضنته هي و قالت؛

-أنا أعيش غدي كل يوم حتى يأتي الغد الذي لا أعيش فيه.

***

غاب آدم داخل الغرفة وصار سقفها كأنه أعلى من العادة. ومع غروب الشمس قبض قلبه حين سمع صوت أمه في المطبخ تدندن. وصار جو الغرفة كئيب بحسابات الخسارة. وكيف سيتأقلم الأن. لم يعلم ماذا يفعل ومن يحكي له. ليس لأحد أن يعلم. هذا سرهم الصغير. مثل كل اسرارهم الصغيرة; غير أن هذا سر كبير. كبير وثقيل جداً. لا يقدر عليه وحده. لا يقدر على حمله. وهو الوحيد الغير مدرك وحدته إلى اليوم. إلا اليوم. غاب آدم وأغلق عينيه رافضاً لأشياء كثيرة أولها عدم فهمه لأسباب المفاجأة السيئة. وما نواياها؟ ولماذا عليه تحمل نتائجها؟

رن هاتفه بـاسمها. وجعل هذا الأمر أسوء. نظر للهاتف, وأزاحه بعيداً عنه, حتى ظل يرن ويرن, طويلاً جداً حتى توقف. فأتى به وأغلقه. ورماه في درج ما بعيداً عنه. ككل شيء. يريد كل شيء بعيداً عنه الآن.

وصل لتلك المرحلة.

أن يغترب عن كل قريب حتى يقترب من الغريب; نفسه.

كان في غرفته يصلي. عندما فرغ, جلس على طرف السرير و أمسك بهاتفه و فكر أن يتكلم معها, أن يحكي و لكنها ربما تسأل أسئلة كثيرة، لن يكون لديه تفسير أو لغة متقنة كفاية لتفهمه..

قرر أن يسجل مايريد، أن يتكلم لعله يشعر بتحسن:

-إذا كان أحداً لن يعلم, ها أنا أتكلم مع نفسي..

أنا خائف من الجميع. من الوقت والعمر والحياة..

إذا كانت أمي لا تخف، فهي تكذب. وإذا كان أبي لا يعلم مابها، فهو يكذب.

لماذا لا تريده أن يعلم؟

لعلها تتأكد أنه سيهرب كما يفعل في كل مرة..

لعلها تعلم أنه لن يقف, هاها! لعله يعلم بالفعل ولهذا سيسافر!

كان باب غرفته موصد ولكن صوته كان طليق.

إذا بمحب في طريقه إلى غرفة نومه, تسربت كلمات آدم إلى أذنيه.

-ماذا لو لم تشفى أمي؟

إلى متى وقتها علي أن أتحمل؟ وكيف يكون هذا الوضع الطبيعي طبيعي؟

على من أضحك؟ أنا لا اعلم أي شيء دونها!

كل مايحدث لي وكل مالا يحدث, كل قراراتي منبعها نور..

توقف محب للحظات,

لم يقل شيء, أخذ ما أخذ من استنتاجات وذهب بلا شيء يذكر.

وجد نور في الغرفة, مستلقية كأنها نائمة, نظر عن كثب إلى وجهها وكاد أن يقول شيء; كاد أن يتشبث بها, أن يحكي أنه تراجع عن السفر, أنه سيبقى هذه المرة, أنه لن يغيب كما فعل من سنين فاتت.

أحست بوجوده جانبها فصحت من غفلتها وقالت,

حبيبي, ماذا بك؟

لم ينبث بكلمة.

فقط استمر في التحديق بها,

شعرت بالغرابة فـ اعتدلت في مجلسها وتسآلت بقلق:

-ماذا حدث؟

-اخبريني عن تلك القطعة التي طالما حكيتي لي عنها.

-أي قطعة؟

-تلك التي ذات حجر ورفاق..

لم ترتح نور لنبرة صوته ولكنها باشرت في الكلام:

«لديك مايكفي من ذكريات.. كي يكون معك رفاق على هذا الحجر, أقعد وسلهم بالقصص فهم مثلك شاخوا وضجروا. قص عليهم حكاية المسافات التي مهما

مشت, تبقى في مكانها.. أخبرهم عن الجن الذي يلتهم أطفال القلب, عن القلب الذي مهما حبل يبقى عاقرا..»

ابتسم لها محب كأنها اول ابتسامة,

كأنه يراها للمرة الاولى قال:

-سأشتاق اليك, سأشتاق إليكِ كثيراً جداً..

وضع رأسه على حجرها و توقف عن الكلام و التنفس.

ألقت يدها على رأسه و أردفت دون تردد و بنبرة بطيئة على غير نمطها المعتاد:

-و أنا, و أنا كثيرا..

جاء الصباح المبكر زائرا دون تردد إلى غرفة نور و محب.

لازالت نائمة, و هو كان ذاهب.

أغلق الحقيبة واتجه لباب الغرفة دون وداع يليق بـنور وسنوات نور.

كاد أن ينسى مكان الدبلة في إصبعه. كاد أن ينسى أول يوم في حياة آدم. آدم..

الساعة الخامسة فجراً, لابد أن يجد الصبي نائم الان.

زحف حذراً نحو غرفته ووجد الضوء خافت. دخَل بهدوء و جلس على آخر ناحية من السرير وبقي صامت محدقا لملامح آدم دون كلام.

-أعلم أنك لا تحبني.. من أول أيامك, كانت هي أصل الحكاية, وأنا هامشيّ..

هي من اختارت الاسم والتفكير والتربية, وأنا.. ماذا اخترت؟

حاولت.. أن أنضم إلى الدائرة ورفضت. أعتقد أني ماكنت كافيا عمري.

كنت أرى كيف تتجنبني, وكان هذا مؤلما في بدء الامر إلا أني تعودت.

فكما تقول أمك الثرثارة, كل شيء صعب يكن سهلاً ما إذا تكرر نمطه أكثر من العادة. وانعدام اهتمامكما قد كان زيادة عن الحد المرغوب فيه..

لا أعلم ما إذا كنت سأعود.. ولكن اعلم أنك ستأخذ ماتمر به أمك على محمل الجد, وأن حبك لها سيجعل من محنتها جنة. أنا ذاهب يا آدم, فلا تلومني.

كان كلام محب دائما بلا تفكير ينبثق, وكان لا يهتم بما تعنيه الكلمات, وبقيت تلك العادة مصاحبة له طوال السنين الفائتة فلم يساعده بنيانه القوي ولا ضحكته الجذابة في التعمق في المحادثات. كل شيء آيل للسقوط طالما قبلت التفرج. العلم بالشيء لا يغير حقيقته حتى إن لم يعجبنا الوضع.

بدأ بالتحرك من على السرير, ألقى نظرة أخيرة على ولده, نظر لأرض وقوفه كأنه يريد أن يقول شيئاً ما, لكنه لم يفعل وذهب.

فتح أدم عيونه و لم يتحرك.

(لست أنا)

أول علامات المرض..

في البدء، ينحدر عنك كل جميل..

تظن أن نهاية العالم بين نفس يدخل و آخر يتركك

تظن أنه لا مفر من الموت البطيء بروح تتفتت

يستقل عنك باقي جسدك

كأنه لا يريد أن يشهد تدميرك

و تبكي و تصرخ لا من الألم بل لسوء حظك

و تكاثر أسئلة «لماذا» دون إجابات

تتعب كليث يعدو صامتاً خارجاً مدوياً داخلاً

الكل يراقب غضبه في سرعته

و هو يريد أن يصل لآخر الطريق ليس إلا

ثم لا يتغير شيء...

تتكرر نوبات التألم الغير هادف

مرات عديدة و مرات

حتى إذا رأيت شخصاً سليماً تتحسر

على ما أصابك

و يمر بعض الوقت..

و لا تموت..

لا تصرخ و لا تتألم..

بل تنظر لأي إنسان لم يُبلى بعلتك

و تشيح بنظرك بعيداً..

كأنه يملك ما أفقر من المرض

أو كأنه المرض نفسه..

لا تتعذب و لا تبالي

فقد مر كفاية من الوقت ليعلمك أن ما فات منه

لن يكون بقدر ما هو آتِ

فتصمت.

يختلف الأمر تماماً عندما ترى النهاية.

أيا تُرى يكون ذاك السبب أننا لا نعلم متى سنموت؟

العلم بانتهاء الشيء، ينهيه قبل نهايته؛ تكون كل لحظة هي النهاية. علمت أنها تتلاشى، و كوب الشاي بين كفيها، و هواء أكتوبر يداعب جلدها، رفعت ذراعها تاركة ذرات الهواء تتهاوى و تنزلق و تتمايل معه. رقصت مع النسيم الخفيف كأنها أول مرة تشعر بالهواء حولها. ظلت محدقة لحركات ذراعها حتى كادت الدموع تغلبها. متى يأتي اليوم الذي لا تتحرك فيه؟ و ماذا ستشعر حينها؟

استشعر إطلاقا؟

بدى لها الأمر كأنها في عنق زجاجة موصدة ; ليس لها أن تتحرر بحركات جسدية. كل ماهناك أنها تهتز وترتعش; خوفا وقلقا قبل أن يكن وهنا وإرهاقا. ذهبت إلى المشفى وكل مابها يصرح أنها لن تخرج من الباب كما دخلت عبره. آدم كان معها.

-دكتور طارق موجود؟

سأل آدم بخفوت لمن كانت بالإستقبال.

-مخ وأعصاب؟

أردفت دون أن تنظر إليه.

-أجل.

-الساعة السابعة.

كانت الساعة السادسة ونور تتسند على كتف آدم. أنفاسها بدت أضعف كلما تكلمت وزاد وزن الهواء على جفنيها. بدى كل شيء أقرب إلى الهذيان من الحقيقة. يدها بـذراع آدم ويدها الثانية تلامس صدره حين همست:

-بقي الكثير؟

-فقط نصف ساعة. قد يجيء في أي لحظة.

أغمضت عينها ولم تحارب رعشة جسدها كلما لامسها هواء أو بعض منه. فلم يكن الجو بارداً حد الارتعاش, لكن مع أول خطوات المرض, كل شيء بدأ بالتحول. ماهو ساخن يكن أكثر سخونة, وما هو بارد يكن أكثر برودة. وأنفاسها لازالت لا تنصاع لاوامرها بالوصول إلى رئتيها.

جاء دكتور طارق.

-نور هانم, جاء الدكتور. أمي هيا بنا.

أسند آدم نور ليأخذها للطبيب. ومشياً حتى وصلا إلى الباب ثم توقفت نور.

-أريدك أن تعدني بـشيء.

قالت بوهن ظاهر.

-أي شيء يقال في تلك الغرفة لا يخرج من تلك الغرفة. أي شيء يا آدم. اتسمعني؟

أمسك آدم بـأمه وضمها إلى صدره وقال:

-حسناً يا أمي, لندخل.

-دكتور طارق, كيف حالك, آدم محب.

هذه أمي, نور, جئنا للاستشارة.

-أهلا مدام نور, بماذا تشعرين؟

-كل شيء في جسدي يؤلمني يا دكتور.. ذراعي وصدري وعيني وقالوا لي في عيادة أخرى بأمر متلازمة مايشكون إنها السبب. متلازمة جيلان باريه..

-دعنيي أرى عيناكي ويداكي, ولنفعل بعد الفحوصات لنتأكد.

-مامدى سوء الأمر يا دكتور؟

قال آدم بتردد.

-ليس هناك أمر سيء طالما يحمل بالشكل السليم في الوقت المناسب.

وابتسم دكتور طارق ابتسامة مصطنعة, كأنما هي مبرمجة لكل المرضى. كأنه سئل ذاك السؤال طوال فترة كونه طبيباً. فبدت سريعة غير طبيعية. بدت اوتوماتكية .

ترك الطبيب نور وعاد إلى مكتبه يكتب ثم قال:

-هذه الفحوصات مهمة, ويجب أن تكون جاهزة بسرعة, الأسبوع القادم على الأكثر.

عادا إلى البيت وكانت نور قد غرقت عرقاً, فقالت لآدم أن يذهب فيملأ حوض الاستحمام بماء ساخن حتى تفيق من المشوار.

-هل أنتِ متأكدة؟ ألن يضرك هذا؟

-لا, فقط إذهب.

بدى كل شيء هادئ جداً و عادي إلى مُطلق الحدود. يوم جديد لا يعلم كيف بدأ ولا كيف سينتهي. أمه في الحمام، بعض سعلات متقطعة و أنفاس عالية تارة و منخفضة تارة اخرى. استلقى على سريره و عيناه تجيء يميناً و يساراً. ما المفروض و ما المقرون بالافتراض؟

أغمض عيناه و لم يسمع سوى صوت البحر تدريجياً و الحياة كأنما تطفو به على سطح ماء لا ينقض على جسده ليغرقه. كلمات تأتيه بهمس غير مدرك مصدرها

«منها و إليها نعود»، يتكرر نمط الجملة و يزداد الموج به حيث يسترخي مع كل نسمات آتية من المروحة أمامه، و لا يستجيب لأي من خوارجه إلا إذا نادته نور. يسمع اسمه يُنطق بلحن جميل مليء بالعاطفة و الحنان و السكينة. آدم.. يعود في الطفو لأعلى مع كل تكرار لحروف اسمه. مع كل نغمة جديدة.

أحس بالانعزال التام الهاديء، لا شيء يهم. لا شيء له وجود، سوى أنه المخلوق الوحيد على سطح الماء. آدم.. يعلو الاسم تدريجياً..

آدم!!

انتفض لصوت أمه تناديه من الحمام و قد مال صوتها للصراخ أكثر منه للمناداة. هرع إليها تاركاً سريره و انطلق ليجدها على أرض الحمام مغشياً عليها و حولها الكثير.. الكثير من الماء، الذي لم ينسحب عنها إثر رعشة يداها و هي ممسكة بالمنشفة.

لم تكن نور مغشيا عليها ; كانت ترى وكانت تسمع وكانت تحس. أحست. بادم يحتضنها برعب بخوف بذعر. أحست بـانزلاق قدمها على ماء الحوض. وبالمنشفة حول جسدها الضئيل على حافة السقوط. أحاطها السكوت, هبطت جفنيها واستسلمت للعدم.

قاربني الصدأ.

كثير من الماء، كثير من الهواء.

كثير من الصمت المخيف كجوف الحوت يوم زيارة يونس له.

تنهمر الدموع و تنقلب ضدي.

و الشموع في طريقي تسيح.

تقع فوق رأسي غير مدركة بعبئي.

كل ما أريد لا يأتيني

و كل ما لا أريد يأتيني.

و لذلك أُترك للفراغ،

للتقرح الداخلي،

للفضاء الروحي

و أطفو داخل فقاعة خيالي.

يمر بي هواء ساخن

و قطرات ندى قليلة

فأشعر بالتيبس داخل كل حواسي

الظاهرة منها و الباطنة

و لا تمر بي ساعة

إلا و أنا اغوص في الصدأ

بلا تنفس

بلا آمال

و بلا شغف.

تغيب. تغيب نور عن الواقع. لا تصحو إلى على صوت غريب:

-يجب أن تنقل للرعاية. يجب نقل البلازما حتى لاتسوء الحالة أكثر.

-متى؟

-خلال أسبوع على الاكثر. بعد أسبوع, لا نعلم ماذا قد يحدث.

-شكراً دكتور.

رافق آدم الطبيب وعاد لنور والنور الخافت القادم من الشموع يحطها.

رأسها مسنود وبقي جسدها مستلقي على السرير.

كادت الشمعة ان تنطفيء؛ يميناً يأتي هواء يهددها بالخمود و يساراً يدافع عنها هواء آخر. الكرسي الذي يميل للوراء ببطء تارة و للأمام تارة أخرى دون صوت مسموع. نور هانم، تتبع دخان البخور ذاهباً لأعلى؛ مثل خوفها، مثل آمالها و أحلامها. مثل كل ما تخشى و كل ما لا تعرفه؛ كروحها بالضبط. ابتسمت لذكرى جاءتها عن تلك الجملة التي قرأتها في كتاب ما في زمن ما التي تقول «كُل ما يذهب لأعلى لا يضيع. و كل ما يهبط لأسفل لا يُرى.»

إنبثق نور خافت من الشمعة كأنها تودع الليلة، و تهمس لنور هانم بالخير الوفير في الصباح. لا زال الكرسي يهتز خفيفاً لكنه الأن يصدر صوت يكاد لا يسمع إلا في هذا الصمت الكاتم ذو رائحة البخور العتيقة. يئن الكرسي من الملل أو من الهم أو من كثرة التفكير نور أثناء تحديقها إليه. لا يريد ذلك الكرسي أن يسمع المزيد من التساؤلات، فقد نفذت منه جميع الإجابات. نفذت، و لم يعد لديه سوى ذلك الأنين الطفيف الذي يُلمح على اعتراض بسيط.

أغمضت نور عيناها، و لم تعبأ بأي صوت أو رائحة أو شكل، حتى ما يرسمه دخان البخور في رحلته إلى أعلى. إلى أعلى.

***

وقفت أمام مرآتي أهذي. ذهب آدم للمدرسة و محب لازال مسافر. و أنا أهذي. لبست أحلى فستان لدي و أجمل حلي و تسريحة شعري المفضلة و انتظرت. انتظرت أن أشعر بشيء. إختفت كل الأسباب من حولي. و نظرت و تفحصت كل مفاصلي. كيف كانت ملكي طوال الوقت و تغاضيد عنها. حركتي أصبحت كنزي الذي يفنى كلما مر عليه وقت. قنبلة موقوتة منتظرة الدقائق المناسبة. كل إنجازاتي وقعت أمامي على الأرض. ابني و زوجي سيعانيا بوجودي و من بعدي. أهلي. عمري لن يكون له معني. قالوا إن العلاج من المرض نادر و أني حتى و أن عولجت، لن أعود أبداً لطبيعتي. لن أعود لهذه اللحظة الأن، لفستاني المفضل و حليي المفضلة. لن أعود. و جاءتني رؤية من يدفنون موتاهم بأحلى الثياب. رؤية الجاهز للعودة فيتأهب. أو ربما حتى يكون شكله لائق بمقابلة صديق الجميع؛ الموت. نعم، إن الموت صديق. و لم أصدق اني قد عثرت على من هو أبشع من الموت؛ موت بطيء مع التنفس. تلك الخانة. اسميها خانة الفراغ. لا أنت بقادر أن تنهي نصف الحياة و ما أنت بقادر أن ترجع للنصف الأول. معلق. مسموم بثعبان غير سام؛ أثاره الجانبية تخصك، لكن لا تقضي على حياتك. استيقظت من أفكاري و تذكرت أن ليس الأن وقت الفزع أو التحليل. ليس الأن على الأقل. فمر بي الوقت استمتع

بلحظات قد لا تزورني ثانية و عبد الحليم يؤنسني.

بهرت بتوقيتي السيء. إن كان الضعف مكانه الأن فأين تذهب القوة؟ تفنى؟ تنتهي؟ إن كان الحب مضى فماذا يبقى الأن؟ تخيلت أني لازلت صبية في العشرون و محب، يحبني وقتها. يجئ بأكاليل الورد و يخدرني من يأسي و بأسي. كنت مرحة و حلوة و غير مهتمة. و قدماي كانا جناحا يرفعاني و ينزلاني حتى يأخذني هو و يدور بي. و اليوم تدور بي الأيام. ليتني كنت اعلم. و ليته لا يعلم أبداً. و لا يراني. يا ترى هل أخبره آدم بشيء؟ لا، آدم ذكي، أذكى من هذا.

رأيت كتاب أمامي و قلم و ورق. و تذكرت الجوابات القديمة. تذكرت الرسائل ذات الألوان الزاهية؛ أصفر، أخضر.. و كلمات محب و حبه.

و أتى على بالي كتابة رسالة؛

حبيبي من داخل غرف قلبي؛

تمنيت أن تكون الأحوال غير هذه الأحوال. و تمنيت أن نبقى إلى آخر العمر، و لكن ها هو آخر العمر يسبقنا. تمنيت أن أراك بشعر يشيب، و تراني بخصلات يتركها اللون ليرقد رماد السنين بسلام و أنت لا زلت تحبني. تمنيت أن أتكيء عليك في لحظات غربتي و أن أنسى أننا في يوم تراسلنا فتذكرني. تمنيت أن أنسى لتذكرني، و أكون بهذا قد اكتملت. فماذا يجب علينا أن نفعل حين لا يكون هناك من يذكرنا و يتذكرنا؟

ها أنت الأن غير مدرك ما تقرأ إن كنت ابداً ستقرأ هذه الرسالة. و لكني أتأسف من أعمق نقطة بقلبي. لم أكن أعلم؛ لو كنت أعلم لما كنت أجلت اجازتنا لنستكمل العمل. لو كنت اعلم لما كنت تشاجرت بسبب تأخرك في الرد أو برودك مع مشاعري. لكنت أمت مشاعري. و طعنت ألف مرة ما يقتلني حتى لا يقتلني و تبقى ناظر الي. لكنت عدت باكراً لأكون بأحضانك الغالية. لكن الأن لا مكان للعودة. المر قد طفح من جوانبي و ما عدت أصلح للحب، يا محب. أنا أنتهي دون إنتهاء، و يجعلي هذا جوفاء. و ماذا تفعل بامرآة جوفاء؟ إشتقت إليك و ليس بحقي ولا بوسعي أن اسألك للعودة، فإلى ماذا تعود؟ إلى من تعود؟

إنقضى زمن العودة و صارت الأيام تسابق بعضها لتلتهمني. فلا تفعل يا حبيبي،

لا تتهمني بعدم الاهتمام.

أنا اقتل نفسي حتى لا تقتلني رغباتي في الموت و أذكر نفسي أني أبقى بشكل أو بآخر.

بحبك و بشغفك لكن ليس أبداً بعطفك أو بضعفي. تتألم؟ لابد أن تذوق وجعي.

لابد أن تعيش ألمي.

أنا أراك بعيد عني و أريدك بكل لحمي

فإذا البعد عنك أهون من ذوبان كل عظمي.

من فقدان كل حواسي.

أتمنى عندما أفقد النطق

أن تظل تشعر بي

و بكل نقطة من إحساسي بك.

كما بدأنا، يا محب.

حبيبتك،

نور.

لان العدل يحدث في الأوقات الخاطئة. كمثلاً عندما يذهب كل شيء منك. كمثلاً تمنيك لأشياء خرافية ثم تفشل ثم تتمنى ثم تتفائل ثم يحدث شيء جيد ثم سيّء فسيء فأسوأ ثم تضعف ثم تذبل فتتآكل ثم تتوقف عن إرادتك لتلك الأماني. تراها خرافية بالفعل. ليس لأنها لا تُنال؛ بل لأنك أدمنت عدم الوصول فصار الوصول خرافي لا يحتذى به. ثم يصير شيء عادي ثم يصير شيء لا قيمة له. هكذا يتحول شيء من خرافي بلا حدود إلى بلا أدنى قيمة. و لا يعود كما كان مهما حدث، لا يعود حتى إن حاولت. لا تتحول الأمنيات الميتة إلى امنيات صلبة مرة أخرى. الروح ليست بالشيء الرخيص؛ فلا تتهاون. لا تتهاون أبداً. و لا تجعلها تهون.

إنتهت من رسالة محب. محب. ذاك الذي نور حياتها وهي تظن أنها تدمر كل هالات النور حوله. وذهب بها عقلها إلى عشقها الثاني ; آدم. كيف سألها ما إذا كانت خائفة. كيف تكون خائفة وهي من تخلت. عن كل الأشياء. مذ أن كانت في

منتصف عشريناتها وهي تسأل.

ماهو التخلي؟

هو الرؤية لما بعد الرؤية. الإحساس لما بعد الإحساس. الشعور بالشعور حين لا يكون هناك شعور. أن تكون على سجيتك وأنت غير نفسك. وأنت خارج نفسك تكن داخلها. التخلي هو أن تكون في حالة ظاهرية غير تلك التي بداخلك.

التخلي, هو أن تحب بكل جوارحك حتى تظن أنك لست في المكان والزمان بل أنت مابعد ذلك. اختبرت هذا عند أول مرة قررت بها أن تصلي. كانت في السادسة والعشرون. طوال تلك السنين كانت تصلي, لكن كما قيل لها. بالتلقان المعهود. بالكلمات والتعليمات. بالنسيان للاسباب. حتى تركت الصلاة. تركتها لتعلم لماذا نحاسب عليها أول الأشياء؟ لماذا وهي شيء يمكن أن يفعل بسهولة. فهاهي الناس تتوضأ وتستقيم. ويقول الإمام خمس مرات يومياً « استقيموا» وتستجيب الناس وتفعل; تستقيم ليرحمها الله. حين تركت نور الصلاة, لم تعزم على الترك بلا عودة. بل ظلت تسأل, وتبرر, تهزم في أسئلة وتنتصر في أخرى. تبكي وتحزن وتموت داخلها ألف مرة حين تظلم من بحر الشك القائم فيها, داخلها. حتى جاء ذاك اليوم. يوم التخلي. يوم المعرفة كما تسميه. بعد تجربة دامت أكثر من ثلاث شهور, استمرارية الصلاة المعهودة, الحركات المدروسة, ألقتها على شاطئ الغربة عن النفس. وهدأ البحر داخلها. وصارت نور في فقاعة من السلام الغير معهود.

تخلت. وقفت على سجادة الصلاة. حجابها الخفيف مسدل على كتفيها. ذراعيها يحتضنان بعضهما, وكل مافيها يصمت. تغمض عينيها وتذهب. وحدث ماحدث; مع أول كلمة من فمها, أحست بعدم وجود أرض وقوفها. أحست بإنعدام وزنها على الارض , إن قطعة القماش على رأسها هي فقط قطعة قماش. إن الأرض هي فقط جزء من كل. إن حدودها تنحصر في المربع الذي تسجد فيه. إن كل مافيها يسجد. أن قلبها قد توقف عن الخفقان, وصار يعزف. أن كل شيء توقف عن الوجود, وصارت هي في تلك النقطة من الكون حيث كل شيء يسبح, كل شيء يسبح ويُسَّبح في بحر واسع. بحر داخلها قد إنتهت امواجه وصراعها. في تلك الصلاة, لم تفتح عينيها, وقررت أن تسلم جسدها لذاك الشرود, وكانت اللحظة الأعظم تجلياً عندما انخفضت بجبينها لتلتقي بأرض وقوفها. مرة, لتتذكر من أين أتت, ومرة لتتذكر اين هي ذاهبة. والتشهد, أتى بوجدانها, وجعل منها في وحدة مع خالقها. وفي آخر سجدة, نفَسها ذاب عنها وكل نقاط قلبها السوداء سقطت بلا رجعة. وعلمت أنها الأن بلا شيء يذكر. أنها الأن لا تحتاج لأي شيء يذكر. ولا

يهددها خوف أو رعب أو مرض أو ضعف أو انتظار أو بلاء. فهي الأن في اعتلاء عن كل شيء. هي في تخلي أبدي و متجلي.

فكيف يسألها آدم إن كانت خائفة.

كيف؟

***

توقفت في منتصف الطريق فجأة. و كان شتاء نوفمبر يقرع اجراسه؛ كما فعل ذاك السائق ورائي كنوع من الشتيمة، و دام صوت بوق سيارته أكثر من اللازم فاغلقت أنا زجاج سيارتي متزامناً مع سرعة ذهابه عني. قطرات من الندى كبداية معلنة عن المطر، و الصمت يؤلمني. الصمت يأكلني. أمي، لا يمكن أن تموت أمي. ظلت الفكرة تلتف كالحبل حول رقبتي و أنا وحدي. و نفسي صار يهجرني. و انقبض قلبي لفكرة أني أريد أن أسمع صوتها. أحتاج أن أسمع صوتها. و انهارت كرامتي و عزة نفسي أمام اسمها، و رقمها على شاشة هاتفي.

أول جرس.

- آدم؟

- حور يا نور البلور..

يا من زمن الفتور..

حلوة و صغيرة،

صغيرة جداً في هذا الكون..

-ماذا بكِ؟ ألن تسأليني ما دهاني؟

-أين أنت؟

- أهذا ما يهم؟

ضحك آدم ضحكة عالية غير اعتيادية

- أنت تهلوس..

- بل أعترف!

-آدم..

صمت الصبي لوهلة، و لم ينطق فتسآلت حور في قلق؛

-اين انت، ارجوك؟

لم يجبها آدم، و انحشر الكلام في اعلى نقطة وجدت بحلقه حتى بدلها الألم فبدلها الضعف فبدلته الدموع. و سمعت حور صوت آدم يخف و تعلو من تحته العبرات الساحبة لأحبال الصوت مع فعل الجاذبية فينفطر القلب، و بكى آدم. من كل قلبه بكي، داخل سيارته، وحده، مع حور، مع الصمت، مع الحيرة و قلة الحيلة، مع الغضب و الاستياء و انعدام الحرب مع المعاناة. بكى بألم ظاهر و غير معهود. تقلبت أمواجه حتى هدأت فتكلم؛

-امي.. امي تنتهي..

-ماذا؟

-امي، تذهب عني يا حور، امي تغادرني كل يوم اكثر من الذي قبله.

و لا اعلم ماذا يفعل.

-بالتأكيد هناك حل..

- صعب و يتطلب مجهود كبير.

- السهولة ما كانت ابداً من شيم العائلة.

-خائف. أرتعب.

-و هي؟

-هدوئها يزيدني رعبا..

- ثق بها. اسألها عن ما بها.

- لماذا؟

- لربما تعلم، لربما ترى حينها ما تراه هي.

-لن يهم..

- لا أظن.

-ماذا تعرفين انتِ؟

- أعرفك.

اخذت المكالمة بضع دقائق, واخذت من روحه، روحه. ولم يعلم كيف أو لماذا ثم اخذ يفكر. اخذ يحلل. ويتخيل وينصح في نفسه. ظل يبعد نفسه عن التفكير بها.

اين تذهب. اين يجب ان تذهب؟

يجب عليك ان تفهم ان كل المغامرات ذوات أثمان.

و لا يصح ان تجعل الإثم، إثمان.

و لا عليك ان اخطأت، فلا خطأ يمحيه خطأ

و لا انت من الأخطاء معفي.

احبها.

و بينه و بينها سنتان. هو الأصغر.

بفعل شهادة الميلاد اللعينة. لا شيء غير ذلك.

بفعل ان أمه حملته في تسعة أشهر

بعد حمل أمها بها بعامين.

احبها. و لم يملك غير ان يحبها.

غير ان يتملكه شعوره كلياً بها. وحدها.

و انها يجب ان تكون له.

و ظن ان الإرادة وحدها تكفي.

و احتياجها له يكفي.

انه هو لها، يكفي.

احبها.

غابت عنه كل اسباب تعلقه بها. فماذا حقاً يجب ان يفسر؟ ماذا حقا له وزن هنا حتى يثقله اكثر من هذا؟ كيف يصل وماذا تظن هي به؟ ماذا تحس هي به؟ وهل تحس به بالاصل؟ تفكيرها وتفكيره بـأمه, تفكيره بـمستقبله المتروك على هامش هذا الطريق المهشم. كيف ينتظر أو لا ينتظر؟ كيف يحب ولا يحب؟ كيف يصبر ولا يصبر؟ كيف يسعد دون حزن وكيف يحزن دون سعادة؟ وما هي قيمة السعادة إذا كان سيمحوها حزن, و ماقيمة الحزن إذا كان ينسى بالسعادة؟ أحقا ينسى؟

****

كان كل ما اتمنى و اكثر.

و كل ما يوجعني و اكثر.

و لازلت لا افهم؛ كيف ما نتمنى بعمق، يكن دائماً الاختيار السيء، ان لم يكن الأسوأ.

فماذا تريد امرأة في رجل لا يريدها؟

ماذا تريد في رجل لا يتباهى بها؟

و لا يذكرها بخير

و اذا سألته عن حاله بقلق

يقول لها بفتور «بخير»

انا في حالة هروب دائمة. أتخيل ما أتخيل و تبقى حقيقة واقعي ثابتة. لا تتغير. و انا لا أتحرك من مكان مستنقع مشاعري العفن. يضم الماضي و يصد المستقبل و يضعني وسطهما بلا وجهة معينة. وآدم, يصدني أكثر من أي شيء. يجعل مني امام نفسي لا شيء. اهتمامه مؤقت غير مفهوم. ومأساته لا تنحاز أبدا إلى طرفي.

أحبه؟

ماهذا الهراء؟

لابد ان اعلم ماأحب هنا. كيف أحب هنا.

وأرى جميع الاسباب وجميع الاطراف; وهو أهمهم واولهم.

وإن كان لا يرى كيف انظر اليه, إن كان قلبي لا يدق بضجيج كافي, كيف إذا يجب عليه ان يعلم؟ وإن علم; هل سأحصل على جرعات صوته من الحين للاخر ام ستغيب كما سيغيب هو.

سيغيب يا حور.

***

ماذا تفعلين هنا؟

ابحث عن آدم.

لماذا؟ أهو ضائع منكِ؟

ماذا تقصدين؟

البحث هو مرحلة تأتي إذا ضاع منا شيء يخصنا، و لا يصح أن تقول أنك تبحثين عن ولدي إلا إذا كان ضائع.. و يخصك.

مختفي. أكثر من يوم واحد. أقلقني الأمر و عادة لا..

عادةً؟

هناك عادة بينكما؟

أعني.. هو لا يختفي..

نور.. لماذا تكرهينني؟

جلست نور في مقعدها و نظرت لحور باستغراب

و كانت يدها تميل للتصلب أكثر من الارتعاش، كأنها تقتل الأعراض حتى لا تظهر.

أكرهك؟ هذا يتطلب طاقة كبيرة.

أنتِ صغيرة يا حور.

ابتعدي عن صغيري.

هو صغيري أنا أيضاً.

ساد صمت غير مريح بين الامرأتين

و تحولت الابتسامات الصفراء إلى وعيد يشحن بالشرار الغير موجه في المطلق.

ماذا تريدين منه؟

لم تجب حور.

اتركينا وحدنا! لحالنا!

انفعلت نور فجأة..

وحدكما؟ لكن منذ متى و الطفل لا ينفصل عن أمه منذ الولادة؟

الحبل السري قد قطع من مدة يا نور،

و هو ليس ملكك و ليس طفلك المدلل بعد اليوم.

ليس دميتكِ.

نظرت نور طويلاً دون ولا كلمة. كأن حتى الكلمات لم تعد في صفها.

-في المرة القادمة, لا تفلتي حبالك من الخشب,

فلا يقطعها و يشعل فيكِ النيران. سأتزوجه.

غادرت حور دون إعطاء نور حق الرد, أو حق الدفاع, أو أي حق على الاطلاق.

«هؤلاء الذين يبحثون عن الحب؛ لا يجدوه.»

(فقر الروح)

«حين يكون السكون صديقك المفضل و الصمت يجعل منك ملكاً»

إحساس الفقد لا يضاهيه إحساس. يُضاعف ألمه حينما لا نعلم ميعاد نفاذه. نسبح. نحن نسبح في اللا شيء غير مدركين وجهتنا. الصحيح يصبح خطأ و الخطأ يصبح صحيح، و ما لنا من منقذ. نور، بكل ما أوتيت من نور كانت تنطفيء. بطيئاً، بهدوء غير مشهود. بركود به ذرات صمت قليلة. فبداخلها كل ما لا يُطاق؛ و لا ينطق. ماذا بعد؟ يتكرر ذلك السؤال كأنه السؤال الوحيد الذي خُلق ليسأل. فلا هناك من يجيب و لا هناك من يواسي و لا هناك من يسمع.

كان نائم على الأريكة و هي على كرسي ناظرة إلى البحر الواسع البلاحدود، أغمضت عيناها و تخيلت نفسها داخل الموج؛ يعلو بها، يهبط بها. تلك الحكمة القديمة لصديق ما مر بحياتها حين قال لها إن لشيء أن يعلو جداً يجب أن يغوص جداً. ليس هناك مفر. أحست بملوحة المياه حولها، على جسدها، بين ثنايات وجهها. و غاصت إلى عمق داكن، عمق لا بُعد له. عمق الحب المنتهي، عمق المرض الفاني و الألم المؤقت مهما طال. مهما طال. غاصت و تركت كل ممتلكاتها. كل ما لديها، حتى آدم. احست بالبحر يأخذ كل وجع كان داخلها، لم تؤلمها مفاصلها و لم تتوجع و لم ترتعش أطراف أناملها. كانت مثل حورية متوجة بنور وحيد وسط عمق الظلام الغير منتهي. أتاها صوت موج البحر و عيناها فتحت مرة لتراه أمامها، ثم هبطت مرة اخرى. هبطت.. لتعلو.

كان قد مر الأن الوقت الكافي على المرض كي يكون شخصيته داخلها وعليها.

ملامحها تغيرت ويديها أصبحتا في ركود تام. وكان ذاك المساء على الكرسي الذي يذهب ويجيء بلا هدف على عجل, مساء مختلف. قد جاءها المحب.

-أنا هنا..

آسف.

ليس لي مكان غير هنا.

أمسك بيدها وانهمر يبكي دون تفسير. وفي تلك اللحظة, تغيرت ملامحها ثانية. اعتلاها الرعب والفزع والحزن. لم تكن تقدر أن تتكلم. ولم يأتيها كلام حتى وإن

كانت تقتدر. هذا العجز قد كان يأكلها شيئاً فشيئاً.

-أردت أن أعود. قال لي آدم أن لا أعود, لأنكِ لا تريدينني أن أراكِ هكذا.

كيف لا أراكِ؟ وكيف هكذا؟ ستتحسنين بالتأكيد . أنا أعلم.

ظل ممسك بيدها حتى أتى الليل وهي على الكرسي وهو بـرأسه بين كفيها. وقد كان الطبيب يأتي ليسأل على حال نور. إماءة نعم إذا ماكان السؤال أنها بخير.

إماءة لا إذا ماكان السؤال أنها بحاجة لأي شيء. معها كل شيء.

دخل أدم بعد هنيهة من ترك أمه و أبيه سوياً. ابتسم لانه أول من رأى أبيه راكضاً نحو المشفى, و ها هو يراه راكضاً بروحه نحو من يحب.

-نور هانم, هيا لترتاحي قليلاً, أبي, ساعدني لانقلها على السرير.

أفاق محب من غيبوبته, و ببطء ساعد ابنه لينقل حبيبته إلى سريرها.

إنفصل عنها تدريجياً و عاد لأريكة بالكاد كان يراها.

جلس أدم بجانب أمه و قبل يدها.

و غابت نور في نوم خفيف..

و سكن هو بجانبها طوال الوقت.

نائم على الأريكة.

و آدم بحضنها على السرير

و عيناها مفتوحتان..

دقات قلب محب في وسط السكوت

تصل إلى دقات قلب نور.

و هُيئ لها أنه نائم

و لكن من الذي ينام؟

النور إنطفأ و الحب باق.

و حلم غير عادي يتسلل إلى عمق عقل محب.

ضحكات نور وهي في العشرين و أكاليل الورد الذي كان يبتاعها لها أيام صبى الحب. و هي صغيرة و رشيقة و لا تتكلم سوى عن الأدب و الروايات معه، إحسان عبد القدوس و جبران و محفوظ. و هو لا يرى سواها، يا له من حلم حقيقي! و بلا سابق إنذار، تظلم الدنيا و نور دمية على أرض جلوس محب. يحرك يداها، قدميها، لا شيء. لا تبتسم. لا تقول له كم أحبت الورد. لا تنطق و العيون فقط تنظر إليه في ضعف و وهن. لا يعلم، يصرخ و يبكي. يحملها بين يديه و يدور في مكانه و الدموع تتساقط على فستانها الأبيض. يصرخ اسمها؛ نور! يا نور! أين أنتِ يا نور أين أذهب يا نور! تنبسط الأرض من تحت قدميه و الظلام يغوص به اَلى أدكن الأماكن و تختفي ملامح الدمية بالبهتان فيحتضنها و يريد أن يهرب بها، يجري فيقف في مكانه و تظل قدماه تجري و هو ساكن المكان جريح الروح، حتي تفتح حفرة ما من تحت قدميه و يهوى بدميته و يسقط على الأرض الغرفة.

أول كلمة؛ نور..

فإذا بها مستلقاة بسلام في حضن آدم.

و تأتي رؤية لمحب من سبع عشر عاما

حين كان آدم في حضن نور، و هو على نفس ذات الأريكة، يحلم.

***

في المشفى، رأى على بعد خطوات منه بقايا جسد امرأة يتحرك على كرسي يأخذ طاقته من يدين تدفعان به أماما. دارت فوقه مروحة سقف دوران سريع متقطع فبدى كل ما يراه كأنه مشاهد من فيلم قديم هادىء بلا معنى مرجو. سمع أصوات آتية من التلفاز الصغير الحجم قديم الهيئة؛ بخفوت يسمع مزمار مزعج كأنها زفة عروس تهيأ لحياة جديدة. و رمى بصره على تلك المرأة؛ أو ما بقي منها. كيف سدلت جفنيها و ظهر عظم وجهها أكثر من تقاسيم الابتسامة أو بهتان الملامح. يداها مرخيتان على فخذيها اللذان ليس منهما فائدة سوى ونس راقد ليس

له مكان آخر غير هذا. نفساً يدخل و نفساً يخرج بلا أي تأملات. كان كل ذلك في أول ثلاث ثواني؛ لم يستطع إطالة النظر أكثر، فقد بدأت عيناه بالمغالبة دمعاً و يداه أرادت أن تستقبل السيدة أو من كانت سيدة ليسألها؛ هل كانت حياتها مليئة بالحياة؟ هل كان كل استيقاظ لها في كل صباح له القيمة المرجوة؟ هل كل البكاء يجعلنا نضحك في النهاية؟ و كل الضحك، هل من الضروري أن تأتي دموع تنسينا أسبابه؟ هل قدرها الذي هي فيه الأن مرضي؟ و إن كانت لا زالت تسمع، إن كان الطعام و الشراب و الحواس تعمل لا زالت، هل ستجيبه؟

صمت مكانه و نظر إلى يديه و كيف كانت الرعشة لا زالت مسيطرة على أعصابه.

و ذكر نفسه كما يفعل دائما؛ سيأتي عليه يوم و يكون بلا أعصاب، و بلا احتياجات، و ستأتيه الأنفاس طوعاً و لن يريدها. ستدخل رئتيه و لن يحاربها كما لا يحارب كل شيء لا يتحكم به. و تلك المرأة، سبقت الموت إلى مكان الوصول؛ فالآن، ينتظرها أن تعانقه بحرقة و شوق. لأنها بحق، قد تأخرت عليه. تأخرت عليه كثيراً. آفاق على صوت تسقيف آخر جزء من أغنية لعبد الحليم، و زاد تهجمه عندما بدأت أوتار أغنية أخرى بخطوات بطيئة. عبد الحليم، و آهاته؛ اه يا ليل و اه يا عين.

هكذا تتحول حياتنا من نقطة ما أمام التلفاز في مساء ما بارد جاف, إلى عاصفة تأكل في طريقها كل ما و من لا يعجبها. ككوب شاي ساخن في ليلة يترك بلا أهمية حتى يتجمد الزجاج و يتبقى منك جلد مأواه الوحيد ذاك الفراغ البلا معنى سوى انتظار النقطة القادمة من الانتظار.

في العيادة أذن؛ و أمه في اليوم الخامس و العشرون. في جلسة البلازما الخامسة و العشرون. و هذا المركز القديم في عابدين تفوح منه رائحة العذاب الروحي الأليم. و الحب لا مكان له هنا كما نراه في مئات المسلسلات داخل غرف المشفى أينما كان.

كل الأشياء لا تعني بما فيها, لأن إذا كان الشيء له معنى واحد, لكانت كل البشر تمر بنفس أنماط الألم و العشق و الملل و الروتين. كلٌ له نمطه, كلٌ له تقاليده في العذاب. في المعاناة, نختلف كثيراً مع نفس توقيت عدم اختلافنا.

أحسست بالغربة كلما تكلمت معها و هي لا ترد. كأني بنيت ذاك التمثال من صلصال فاخر لأجعله أمامي يسمع و لا ينطق. شعرت بالشك تجاه يقيني بسماعها لكلماتي ليلتها فاقتربت منها و قلت:

-نور, أنا أشعر.. اقصد أني لا أشعر.. بكِ.. كالسابق

أمي, كل الاشياء تقع. أنا أقع. لا استقبل منكِ أي إشارة إني أُسمع..

قد فاق ذلك كل احتمالاتي و كل تحملاتي. لعلكِ تقولين أي شيْ,

ليتكِ تتحركين بأي طرف منكِ..

اقتربت منها و رفعت يدي لأضعها على رأسها و بدأت بشعور خصلات شعرها على يدي ثم جلدها, عظم وجهها, أتأكد من أن التمثال لا يفتقر الروح؛ فقر الروح هذا يقتلني. سقطت مني يدي على حجرها و شعرت بقطرات الماء تضرب أطراف انامل. نظرت لأعلى و إذا بها عبرات أمي على جلدي.

احتضنتها بلهفة و إنهار مني لساني بالاعتذارات:

-آسف, أنا آسف, آسف يا نور آسف يا أمي..

أخذ كل جزء مني يهتز بعفوانية غير مسبوقة و قلبي كأنه لا يطيق مكانه يريد أن يهرب و شعرت أن إذا امكنها أن تضربني و تبتعد عني لكانت هربت أو حبستني في الغرفة بلا هاتف و بلا كتبي المفضلة و كم تمنيتها أن تفعل؛ أن تغضب و تصرخ و تتركني و تتركني ثم تتركني حتى أتوسل لها أن تبقى فتختار أن تبقى ولا تجبر على هذا. لا تجبر على البقاء بلا رغبة.

-أهي بخير؟

-نعم, نعم بخير, عن إذنك, سأذهب إلى الحمام و أتي ثانية.

رأيته يربت ببطء على يدها. يضع الشال الاخضر حول رجليها, عطرها المفضل عند يديها. يمشط شعرها بحنان بطيء و يلبسها ذاك العقد المفضل لديها. فضة بالخط العثماني «قريب». يبتسم و ينظر إليها بلا ملل. مودة أخاذة تركت كل ما فيها ينساب فسقطت منها عبرات على نفس الاخدود الذي لم يجف من بضع ثواني, و لم يعتذر محب, بل قال بعد صمت:

-ابكي, اشعري بكل الاشياء كما بدأتِ بلا شعور. عودي يا نور, لا تستسلمي لذاك الخدر, ارجوكِ...

كيف بدأ كل هذا؟

كيف اعتراني الظن أنه يتحسن مع الوقت؟

كل شيء يتشوه مع الوقت.

أنا أتشوه. كل الأشياء لدي تسقط على هذه الارض التي أنا منها.

أنا منها؟ و هي؟ أيضاً منها؟

لا اعتقد هذا.

و لا اعتقد أننا يجب ان نتحكم بالإجابات

كما تتحكم الأسئلة بنا.

جاء بكتاب يومياته. أسود غير مزخرف.

السبت، ٢٦ نوفمبر.

الغرفة باردة إلى حد الخوف. الصمت أصبح من أصدقائي المفضلين بعدما ذهب صوت أمي منها. تركت أنا ضحكاتي بين يديها و استلمت الحب المجفف بلا أحضان. بلا أي تلامس جسدي. بلا أي خطوات تجعلني أستند إلى أي ضوء.

أصبحت وحدي أكثر من كوني بالأصل وحدي.

حور، بلا أي شيء تنير صدري بنورها، لا أقدر أن أقول لها بعد كل تلك السنين أني أريدها.

و لكن، كيف أريدها؟

متى أريدها؟ الأن؟ وسط كل هذا؟

لعلها تفكر في آخر أشجع.

في آخر أسعد. في آخر، ليس لديه ما لدي.

و لا أعلم كيف يمكن أن لا أقول لها..

كيف يمكن أن أراها و لا استطيع رغم وصول انفاسي بصعوبة داخل كل رئة من رئتاي عندما أنظر فقط لعينيها و لا أجرؤ أن أعترف لها.

حور،

لا، سأبدأ برومانسية أكثر؛

جميلتي حور،

أشتاق إليكِ الأكثر و أنا معكِ.

و أردد اسمكِ في الظلمات أكثر من النور.

و ابتسم رغم صعوبة الأمر.

فأنتِ كل ما في الأمر.

ترك قلمه، و اغمض عينيه و بات يردد بتفاوت؛

أنتِ.. كل.. ما.. في.. الأمر.

أنت.. كل.. ما.. في..

أنتِ.. فيِّ.

(اجتياح)

كانت على سطح البيت تراقب السيارات،

تلك سريعة، و تلك بطيئة، تلك غريبة و صدئة.

البرد اختطفها من لحظاتها ثم نظرت لسماء الليل.

و تذكرت آدم.

لو كان غريباً لربما كنت قد حاولت.

ابتسمت للفكرة، ثم صدمها واقعها كما كادت أن تفعل تلك السائقة المتهورة بذاك الشاب الذي كان يعبر طريق سريع بسلام.

هذه العائلة العريقة ليست عائلتها.

و عمتها المريضة، و أبيها الحزين حزن الحبيب

لفقد محبوبته. و آدم المسكين. صغير على كل هذا؛ و هي الكبيرة.

هي العالمة المحيطة.

هزها الهواء مرة أخرى فقررت الفرار من البرد و الدخول للبيت، تمشت داخله حتى كادت تصل إلى غرفتها فسمعت أبيها يهمس؛

- لا.. ليس الأن..

لا يجب أن تعودي الأن.

لا.. لم أقل لها بعد، كيف أفعل؟

أنت لا تفهمين. هي لا تعلم أني راحل...

سقط من يده القلم الذي كان يمسك به،

انحنى ليلتقطه فابتعدت حور عن الباب،

و ظنت أنه رآها، فركضت بهدوء ثانية للسطح.

و ظلت غير مدركة ما حدث. أو ما سمعت.

من تلك؟

و إلى أين هو راحل؟

جابت السطح ذهاباً و إياباً.. سألت نفسها؛ ماذا يا ترى يحدث, ماذا عليها أن تتوقع الأن, كيف يرحل عنها الأن وهو الذي وعد وأكثر في الوعود إلى حد الشك في الصدق. ماذا يخبئ. ولماذا دائما الهروب دون أي تفسير.

فكرت أن تذهب وتسأل, أو أن تراقب فتحلل وتصل إلى أي نتيجة, لن يهم ما إذا كانت النتيجة مرضية ام لا. لا يهم إذا ماكان السبب هذه المرة هى امرأة جديدة أو بلد جديدة.

انكمشت داخلها وظهر ذلك خارجها فوجدت نفسها تتحول لتلك الكرة المكونة من لحم وعظم متروكة في جانب من جوانب السطح القديم. بعد عاصفة الاسئلة; سكنت. كأن كل ماكان فيها ماكان. ماحدث. كأنها لم تسمع أو تفسر أو تقول أو تنادي على اجابات ليس لها وجود.

-في عقلي.. هذا كله في عقلي فقط.. لا وجود له على الاطلاق..

همست مراراً لنفسها حتى تصدق حقيقة أن لا وجود للأشياء طالما تلك الأشياء فقط في رأسنا تحوم دخلنا ولا تترك أي جزء فينا بلا شك أو تخوف.

لا يعقل أن تتركي لحالك يا حور..

نبشت بضحكة طفيفة بلا معنى ثم قالت؛

لا يُعقل..

****

جلس آدم في الظلام بلا ولا صوت.

أغمض عينيه و انتهت التساؤلات في تلك اللحظات القليلة من السلام المصطنع.

فإذا لم يجده داخله، فليفعل ما يوجد حوله. تلاعب بالتواجد و ظن كل الظنون. أحس براحة؛ لماذا لا تكون الحياة كالسكون هذا. مريحة، هادئة، بلا أي معنى اطلاقا. كل المعارك نهايتها هنا و كل السلام نهايته هنا. نتيجة واحدة لكل أنواع الآلم و كل أنواع السعادة؛ الوجود في اللا شيء.

لم يتبعه قلبه، فتح عينيه قليلا فكانت الرؤية بلا اختلاف ملحوظ، و كانت دقات قلبه في صدره لا زالت تنبثق رغما عنها. و كان يتوق كثيراً جداً لما يسمى بالوصول الداخلي. أن يعلم أن كل شيء له سبب، و كل سبب له وسيلة، و كل وسيلة لها معنى و كل معنى هو قدر، و كل قدر له قَدْر محسوب، و الحسبة عند الله. كان يتوق أن لا يفكر مرتين أن بداية و نهاية كل شيء عند الله. أن الصورة و الأصل ليسا واحد و ليسا اثنان. و ليس عليه أن يؤمن بجزء واحد فقط فيه، و ليس عليه أن يندم أنه لم يندم. و لكن، هذا الصبي، ذو السابعة عشر من السنين، لا زال لا يعلم أي شيء. و هو كل ما كان يتمناه كل يوم، كل لحظة، أن يستيقظ يوماً ما، و هو يعلم كل شيء.

حتى إذا سُئل عن الظلمة التي يلقي بها نفسه دون إنذار مسبق، يعلم الإجابة، و لا يبقى معلق في صمت ينتهي باستسلامه لجهل لم يختَره. لم يختَره على الإطلاق.

نور الان على الكرسي, وهو لازال يراقب. متى تزول المراقبة؟

متى ينتهي كل هذا؟

-متى يا آدم؟ وكيف و أين؟

قال لنفسه ثم هدأ كل مافيه فجأة..

ماذا لو لم؟

يكن هناك أرض..

تكن هناك سماء..

و غابت الاسباب

و غبت أنا..

دفع بأمه ناحية باب شرفتها ثم وقف.
أول خطواته على حافة شرفة أمه،
تقدم ببطء مهزوز،
عيناه اقبلتا على الظلام البارد
و نور لم تعِ..
لامست انامله الحافة،
وأحس بنبضه يتوقف،
أحس السقوط يناديه من تحته،
سمع اسمه يتردد
يخلصه..
آدم..
ها هنا،
ها هنا الخلاص!
و غاص..
هوى في اللاشعور
و أمه تصرخ داخلها
و لا تساعده انامِلها..
نعم، يا أمي، أصرخي!
يا أمي، تحدي انامِلك،
يا أمي تحدي أصابعك، أعصابك

عقلك، تحركي بقلبك،

بروحك

بخوفك علي

إذا لم تنقذيني يا أمي لن أنقذ،

و إذا لم تمسكي أطراف جسدي

لن أبقى في جسدي محبوس

رأسه تركته؛

النهاية دائماً تأتي بعد ظننا أنها البداية.

و انهارت و استسلمت كل ذرة من جسده للجاذبية.

نور، لا تحرك ساكناً.

هوى آدم، على الأرض ساكناً.

و في لحظة، ظن أنها الاخيرة، فتح عينيه،

و وجد الدموع تملأهما، ازداد شجنه و نحيبه,

وضع قدمه على أرض وقوفه و الدموع تسحب ما بقي من روحه..

يداه بجانبه, و جسده يمشي دون مجهود ناحية نور التي لا تحرك ساكنا..

توقف عندها و انهمر سقوطاً على ركبتيه, و باشر البكاء بين ذراعي نور دون أن يمد يداً, صوته في سراب بلا دليل, يصدي.

***

أنا أموت.

نعم. أول مرة اقولها لنفسي دون تردد.

اقولها دون زخرفة أو اختباء. دون كوني بلا أسباب أو بكاملها. بإرادتي اعلم أني أموت. و لا أحد يلاحظ أني أعلم. انطلقت عيناه تهرب من ظلمة إلى أخرى.

من صورة إلى أخرى. من ذكرى للتي تليها؛ حور، أمها. كيف جرّأت أن تتركني صوفي!!! بيديه محى ما كان أمامه على مكتبه. تطايرت الأشياء بعنف مبالغ فيه كأنها كانت تنتظر بفارغ الصبر أن تقع على الأرض بعد طول انتظار و بعاد و صمت غير مرغوب به.

تركتني صوفي. و لم أختر أن أبقيها.

لم أختر أن اجعلها تبقى أو أن اتركها بلا جراح.

احببتها من كل قلبي. اللعنة على الحب الغير مشروط.. يتركك هائم بلا وجهة. يتركك دائم الجرح، عميق الحزن، ذابل الروح و تارك النفس معلقة. ملعون حتى يوم اليقين.

أراح جسده على كرسيه الجلدي و شدته الجاذبية لأسفل فظن أن كل ما حوله يتآمر ضده حتى يتذكر كل شيء من أول المطاف.

تلك الليلة، ذاك البرد، مطر غزير و صمت مخيف لم يسمع بعده أي صوت غير بكاء حور..

و كانت الفتاة لا زالت صغيرة على رؤية جثة.

كانت الفتاة في الثالثة حين هزت جسد أمها و لم تسمع صوتها ثانية. حين نظرت إلي و كل ما ملكت هو أن أصيح باسمها... همست داخلي..

صوفي..

أنا أموت. حقاً.

و حور ليس عليها أن تهمس يوم مماتي أبداً باسمي. فلعلها تتمناه اليوم قبل شروق شمس غد. لعلها.

***

لم يتبقى مني أي شيء يحفظ. لم يتبقى ندم أو حب أو انتقاء لمعايير حياة جديدة. لم أفكر في الجديد، فالقديم لا يغادرني.

ماذا يريد أبي مني أكثر من هذا؟

تمتمت حور داخلها أثناء شربها لكوب القهوة في الصباح المبكر.

مكان قريب من البيت, تعودت أن تشرب به القهوة من حين لآخر.

وكان على غير العادة أن تلتقي بـأحد تعرفه في مثل هذا المكان.

غاصت وسرحت في افكارها حتى غاب عنها العلم واستسلمت للقهوة الساخنة وكل مايدور بـبالها هو سؤال:

-لما يا أبي؟

لمح جلوسها من بعيد, ظل يراقبها كمن يراقب الشمس في كسوفها أو في المغيب. كان هو الآخر لا يفكر سوى في حالة نور, وما وصلت إليه.

-يمكنني أن أنضم إليكي؟

قال على استحياء مرغم.

-إنت ماسألت عمرك. اشتقت لك يا آدم.

جلس في الكرسي المقابل لها بتلقائية غير مكلفة.

-وأنا يا حور. حقاً.

كيف هي نور؟

ألقى بنظرة غارمة سريعة إلى جانبه,

-كما هي.

-لا تحسين؟

سكت.

-ولا حتى طفيف؟

-كيف فريد؟

صمتت حور ثم قالت;

بخير,

وأخذت رشفة من القهوة التي تبرد منها الأن.

مخيف هذا الزمن.

لا يترك شيئا فينا بلا تغيير..

ابتسمت حور منتظرة منه رد يحول مسار المحادثة الكئيبة.

-لا يمكن أن نبقى كما نحن. لا يمكن.

-ما هو إذا الممكن؟

نظر لها آدم طويلا ثم ابتسم لأنه يعلم ماذا تحاول أن تفعل ثم قال:

-أن نعترف. بكل شيء.

ضحكت حور كأنها كشفت أمره تواً ثم قالت ممازحة:

-إذا, إعترف! قل كل ماتريد أن تقول..

قهوتي بردت على أية حال وأنت ماستبقيني بعيدة عن الجنون لهذه الفترة الوجيزة.

-أرجوك يا آدم خلصني من هذا العذاب الروحي!

قالت مفتعلة حركات مسرحية كأنها ترجو منه الرحمة والخلاص.

حين تغيرت نظرته لها دون قصد, تقلصت ابتسامة الاثنان..

كأن الاعتراف قد دق الابواب بالفعل. كأنه لا يقدر أن يحتمل هراء الانتظار والأن هو وقت هراء أن الحياة قصيرة.

-لماذا تنظر إلي هكذا إذا؟

قالت بـقلب مرتعش خائف غير مستعد لأي رد قادم.

اصابها بـنصف ابتسامة ثم أردف بعد نفس طويل:

لماذا لا تريديني أن أحبك؟

غاص قلب حور في ظلام أكثر..

أدم..

ما هو الصواب يا حور إذا كان كل هذا خطأ!

إذا كنتي أنتي في مشاكلك مع أبيك وأنا اغرق مع أمي؟

إذا كنتي وحدك وأنا وحدي, فماذا قد يحدث أكثر من ذلك؟

حور, أسوأ الأشياء هي الوحدة. وأنا لا استطيع التوقف عن التفكير بك.

لا استطيع.. صدقاً حاولت..

أقنع نفسي بالعقل, ويهزمني قلبي. في كل مرة, يهزمني.

فقط اجبيني;

ماذا يجعلك تخافين؟ ممن؟! فريد؟

نظرت له بـعمق للحظات ثم اردفت همساً:

-من نفسي..

أنت لا تعلم شيئا. لا تعلم سوى مااختار ان أريك.

-وهذا كاف.

ضحكت نور بهدوء;

-بالطبع لا. ليس كاف على الاطلاق.

-دعيني أحبك.. دعيني أحاول على الأقل.

-شرف المحاولة يطاردك منذ الطفولة.

-فهل أناله؟

-قد نلته من أول ابتسامة جعلت قهوتي تبرد.

وأنا كما تعلم, لا اتركها تبرد اطلاقاً..

قالت هذا وخلع قلب آدم منه ولم يعد.

***

إن الحياة لأكذوبة كبيرة. و أنا ما كنت فيلسوف قط. فقط الغيم يملأ السماء من فوقي و الدموع تنهمر مرورا بأخاديد وجهي، و ابتسم لها كل يوم، كل يوم.

أستاذ، فريد. قال الطبيب بعد تنهيدة طويلة.

أنت لست مريض.

ماذا؟ ماذا تقول! بل أنا كذلك،

ألم تنظر إلى اضطرابات قلبي و عدم إتزان أعصابي؟! أي نوع من الأطباء أنت؟

أنا مريض، أعلم ذلك!

صمت الطبيب لوهلة ثم أردف،

أستاذ فريد، أظنك تعلم أن المرض أي مرض أساسه نفسي و عصبي. أننا إن كنّا غير مجهزين نفسياً لمرض عضوي، لا ننجو منه.

ماذا تقصد؟ لا يعقل أن أكون غير مجهز، و أن لم أنجو.. أعني.. كم لدي من الوقت؟

الكثير منه.

صمت فريد ردا بغير رغبة لتكملة الحوار مع طبيبه. إحساس الهزيمة ملأ جوانبه و بدأ الاستعداد للرحيل.

أستاذ فريد، أنت بخير، توتر عادي كأي رجل في عمرك. أمر يحدث كل يوم.

رحل فريد حينها، مشي بطيئا في شوارع واسعة ليصل إلى مكان سيارته أبطأ.

و لم تفارقه آخر جملة سمعها؛

أمر يحدث كل يوم.

قطع تيهه صرير سيارة كادت أن تلتهم سيارة أخرى و فلتت في آخر لحظة. و كاد السائق أن يموت رعباً أولاً قبل موته بأسباب أخرى.

شرد فريد للحظات معدودات ثم أكمل طريقه و ذهب إلى البيت.

ضوء غرفة المكتب خافت، و صوت الباب إن فتح يئز بألم مظاهراً أنه قد تم استخدامه أطول من اللازم، أكثر من اللازم. جاءت الفكرة لفريد من هنا؛ أنه مرت به سنين أكثر مما يستحق أو مما يحتمل. و لا ذنب لأي شخص حوله في هذا.

أنه ترك نور أخته منذ سنوات، بسبب مناقشة غبية، أدت إلى خيبة ثم خيبة ثم خيبة. و أنه هو ذات نفسه أكبر كتلة خيبة لحور. قتل أملها و عاشت مع مسخ لا يعلم كيف أن يكون أب.

تسلل البرد إلى جلده فأفاق من تحديقة أتت بدموع لم يكن مكانها قد جف بعد.

ابتسم متحسراً و قال؛

إهدأ يا أستاذ فريد، فهذا أمرٌ يحدث كل يوم.

كل يوم.

صوت الليل يعلو فوق أي صوت آخر.. قدم تخطو فترد القدم الأخرى عليها بنمط مدروس بعشوائية. الحصى تحت وقع الأقدام، الجو بارد و مريب. السيجارة تأخذ منه انفاسا ثم ينظر بترقب حذّر ليتأكد أن أحداً ما رأه.

دائماً ما يحس أن أحداً يراقبه. يسمع اصواتا لم يسمعها من قبل, اشكالا لم يراها في أي وقت مضى.

-ماذا يحدث؟ كل هؤلاء يراقبونني و ينتظرون قدومي و لا أحد يتجرأ أن خبر حور.

لا أحد يتجرأ!!

قال هذا و هو حامل هاتفه الذكي يسجل..

-ليس هناك أصوات.. ستأتي بعد قليل.. فدائماً تغيب و تعود..

صمت لوهلة ثم صاح إنها أتت! انتظر بعض ثواني و أقفل التسجيل, وضع الهاتف على الطاولة ثم نظر إليه بتردد ثم أمسك به و أعاده لنفسه بطيئاً, دون مجادلة دون انتظار أو توقعات. ولم يسمع شيء.. لم يسمع سوى صوته. وكان هذا كاف.

ليس عليها أن تعلم أي شيء.

أوهام يا فريد. تعاني من أوهام قاتلة لا تمت بالواقع بصلة. حدق إلى نور خافت على مكتبه الكبير، و تلك الورقة البيضاء بلا تاريخ كتابة؛ هلوسة. ماذا لو كان كل شيء حقيقي خيال؟ و كان كل شيء خيال حقيقة؟ ماذا لو كنت معلق بينهما دون رجعة؟ أمعن النظر إلى يده و أغلقها ببطء و زاد في الضغط حتى علم أن الآلم محسوس. حور تكرهني.. قال لنفسه.

لا تعلم عني غير الأشياء الكريهة، و خوفي عليها يصلها كتحكم و فرض سيطرة. لعلها لا تعلم أني أذهب. أني ذاهب.

أحقاً أفعل؟

أغمض عينيه و استراح إلى الخلف في كرسيه الذي يذهب و يجيء ببطء مدروس، يئن مع كل حركة و التفت ليمينه فرأى كتبه مرصوصة تنظر إليه و أول كتاب تحت الضوء كان غير مهم؛

جبران خليل جبران، المجنون.

وقع نظره على الرواية لوهلة ثم إلتفت للناحية الأخرى من الغرفة ليجد الفيلم قد أعلن عن آخر مشاهده، و لم يلحق منه سوى كلمة ‹النهاية› فلم يبذل مجهود ليطفيء الجهاز و أخذ الصوت يستمر بخفوت طفيف لأصوات غير معرفة و غير مهمة في خلفية الغرفة؛

- سنذهب اليوم؟

- ربما غداً، ربما غداً.

كان هذا إعلان ترويج فيلم جديد قادم قريباً جداً في دور السينما. لم يعر فريد أي اهتمام يُذكر.

تمطر ظنونا, وبالنسبة لحور ليس هناك تفسير لما تراه.

-أبي..

انتفض فريد من مجلسه والتفت ناحية الباب,

صوفي؟ هذا أنت؟

لم تنطق حور بـكلمة وتركت في هذيان فريد دون حركة.

إنطلق فريد نحوها وقال لها في نغمة سؤالية غير معهودة:

-لماذا ذهبتي؟ لماذا تركتيني؟ ولماذا علي أن أشتاق لكي كلما نظرت إلى حور؟

كلما رأيت عينيها أراك.. عينيها!... أراك.

هدأ للحظات ثم استجمع قواه ونظر لحور بإستغراب وقال:

-ماذا تفعلين هنا؟

لم ترد عليه حور.

-الوقت متأخر, إذهبي لغرفتك.

-أبي..

-اذهبي!

تحركت حور ببطء عائدة لغرفتها غير مستوعبة ماذا حدث لأبيها أو ماذا يحدث.

توقفت في منتصف الطريق حين قاطعها صوته في غرفته وهو يبقي قائلا:

-صوفي... يا صوفي...

عادت حور نحوه وكان ظهرها مسند نحو الحائط حين سمعته يقول بهمس:

-أنا قادم يا صوفي.. أنا قادم..

حينها, وضعت حور يدها على فمها حتى لا يسمعها فريد تبكي بصوت ولم تعلم ماذا عليها أن تفعل الأن. ماذا عليها أن تشعر الأن؟

***

عادت إلى غرفتها و في بالها كلمات و تفسيرات لما يحدث.

لا شيء يحدث دون سبب. أهو مرض عمتها؟ لا.. ماكان هذا قوي كفاية ليتسبب بهذيان أبيها لتلك الدرجة.. جلست على سريرها حاملة هاتفها, كل مايدور ببالها هو ان تتكلم مع آدم.

لا, الكلام لا يفيد. ماذا اقول؟ قد جن أبي؟ لايمكن..

لابد أن أفهم وحدي, لماذا تذكر أمي الأن؟ ومع من كان يتكلم في تلك الليلة؟

إلى أين يرحل؟

-حور..

انتفضت من مكانها حين سمعت صوت أبيها خلفها.

-نعم.. نعم يا أبي..

قالت في هدوء سريع بلا تفكير.

-تكلمت مع أمك.

لم ترد حور لوهلة, كادت أن تقول له أن أمه ليست هنا وأنها ماتت وأنه مجنون وأنها اكتفت منه ومن كل شيء في الدنيا.

-حقاً؟ وماذا قلتما؟

ابتسم فريد بـفرحة عارمة وجاء بجانبها ثم بدأ يحكي بتشويق.

-زارتها نور. لم تقل لي أختي من قبل أنهما يتقابلان ولكن لا بأس, علمت إلا أننا سنذهب لصوفي قريباً.

انتظر فريد للحظات ليرى تأثير كلامه على حور وتوقع ان تفرح أو تحضنه أو شيء من هذا القبيل. لا يهم أنها لم تحتضنه يوماً من نفسها, لا يهم أنهما ماتشاركا حديثا حميماً من قبل. لا يهم.

-أننا؟ من تقصد؟

-أنا ونور بالطبع, من عساي أن اقصد؟

سنعود يا حور, ولن يكون هناك مرض أو كآبة أو حزن أو أي شيء. أي شيء.

-مع من كنت تتكلم منذ بعضة أيام؟

بهتت ابتسامة فريد وغابت ملامحه وسط الارتباك الظاهر.

صارت اصابعه ترتجف وعيناه تنقلاهُ من مكان للأخر ثم أردف:

-لا أفهم ماذا تقصدين؟

سبقت دموع حور كلماتها ثم قالت:

-سمعتك... سمعتك تتكلم وتقول لإمرأة ما.. أنك راحل.

أنت راحل يا أبي؟

إقترب من حور في ذهول وبطء وأمسك بوجهها بين كفيه وقال في حنو غير مسبوق:

-لماذا تبكين؟ لكن, كلنا راحلون يا حور, لماذا تبكين؟

زاد بكاء حور في هذه اللحظة وقد صوتها أن يقرب للصراخ وهي تقول :

-لكن لماذا ترحل؟ إلى أين ترحل!! ماذا بك يا أبي؟

ليته يحكي لها ماحدث, ليته يستطيع..

أراد أن يقول لها أن به كل شيء. أن كل الأشياء تركته وأنه وحيد. وحيد جداً. أراد

أن يحكي كيف يكتب الجوابات لصوفي. أراد أن يقول لحور كم يحبها. ولكن كل الكلمات انحشرت في صدره فـأزاح حور عن رئتيه لعله يتنفس بسهولة وروية.

هدأت حور ثم قلت له بحذر;

-لنزور نور يا أبي.. ارجوك.

نظر إليها بغضب كالأيام الأولى ثم وثب قائلاً:

-لماذا؟

-لأني أظن أنها اشتاقت لك كثيراً..

صمت فريد قليلاً ثم قال بفتور:

-لا أعلم..

خرج دون مبررات من غرفة حور فلم تعلم ماذا يفعل معه بعد اليوم.

كانت على وشك الاستسلام للنوم حين وجدده يقتحم الغرفة مرة أخرى قائلاً:

-ربما غداً.. غداً.

وثبت فرحا واحتضنته دون مقدمات. غمرت وجدانه فرحاً, وفي تلك اللحظة, في تلك اللحظة بالذات, علم فريد أنه لا يريد أن يرحل. لا يريد أن يرحل أبداً.

***

و إياك الظن أن التخلي أمره سهل.

فلكي تتخلى عن كل شيء، عليك أن تتمسك متألماً بكل شيء. إلى الحد الموت. إلى حد البكاء و النزيف دون نهاية مرئيّة، إلى حد تصديق كل كابوس و كل عفريت في كل زاوية من زوايا حياتك. عليك أن تتمسك بكل كلمة حب لم تقال و كل شخص عشقته و لم تحصل عليه رغم محاولاتك التي لامست سقف صلواتك في كل جوف ليل أكل أحلامك واحد تلو الأخر. عليك أن تتمسك بعنف بكل فرصة رفضتك لأنك ببساطة لا تليق كفاية. أن تتمسك بكفاية الأشياء حتى تظن أنك لن تكون أبداً كاف. و تتقبل و تسب و تلعن و تتظاهر و تقتل نفسك كل ليلة، حتى تهون عليك

نفسك، يأخذك الهوان بفتور فتصبح قطعة قماش ارهقها التمسك و جاء التخلي يزورها ليحييها مرة ثانية؛ فتحيا.

كان قدَر فريد هلوسة بلا معنى ورؤية أشخاص وأشكال وسماع أصوات لم تزره من قبل. وكان قدر حور عدم الفهم; ككثير منا. كانت ليلة بلا ملامح أو تفاصيل. أولها اسئلة وجهت لصورة صوفي وعدم التركيز وعدم الإتزان وعدم العدم.

كان كل شيء طبيعي, حتى قال فريد; ماذا أفعل يا صوفي؟ كل شيء ينهدم..

كل تفاصيل حياتي تقع بين يدي..

آه يا صوفي .. أختي تضيع.. نور لم تعد تنير لا نفسها ولا أي شيء حولها كالسابق.. صمت فريد للحظات وأغمض عينيه وأحس ببرودة الغرفة حتى سمع همس ما:

-اذهب يا فريد.. اذهب..

فتح عيناه بسرعة والتفت حوله ولم يجد أي أحد حوله ولا شيء يطمئنه لا بوجود الصوت ولا عدمه. انقبض قلبه فوجد نفسه يهمس بتردد:

-صوفي؟

إختفت الأصوات وغرقت وسط صمت مخيف تكرر نمطه مع كل سؤال قتل صدى صوته صدر فريد ببطء عنيف.

بدأت القصة من هنا.

القمر لا يسطع كاملاً، طوال الوقت.

القمر ليس كامل، لكنه في اكتمال مستمر.

البدر له وقته و الهلال له وقته. و لا تبقى ناحية واحدة بنفس النمط للأبد. الأبدية شيء بعيد عن الإدراك في عالمنا هذا.

فريد يصد نور الشمس براحة يده و يغطي وجهه بالوسادة حتى يمنع دخول أي شعاع إلى عينيه.

- صوفي، كفاكِ نشاطاً تعالي لننام قليلاً بعد.

- أنت كسول جداً يا حبيبي.

- كسول؟ تقولين أني كسول؟ فإذا أفقت الأن و جعلتكِ تموتين من الضحك..

لا لا يا فريد ليس الموت ثانيةً..

ذكرى جميلة يا فريد، جميلة!!

الساعة التاسعة صباحا، في المشفى.

- أكره المشفى، لا أحبه رائحتاً ولا شكلاً ولا شيء.

قال بفتور و هو ينظر للساعة؛

- لا أحد يحبه، و بعض دقائق و نذهب. بضع اشاعات و ينقضي الآلم و مصدره.

قالت صوفي بحذر؛

- تأخرت عن موعدك؟

- لا، لا بأس..

- فريد، لا تتركني.

نظر لها باستغراب؛

- لما تقولين هذا؟

- أشعر بشيء غريب،

- ماذا يكون؟

- فقط لا تتركني، فلعل كل هذا ينتهي قريباً.

بعد وصول الطبيب، رمق فريد بنظرة ففهم منه أنه يريد أن يتكلم معه منفرداً.

أحنى رأسه لليمين و لامست انامله النظارات بحذر، نظر لفريد بهدوء قاتل، فريد أمامه لا يحرك يداً أو ذراعا، كأن عيناه الطبيب سبقاه لسانه ثم أردف أخيراً؛

- سرطان.

لا، لا يا فريد!! ذكرى جميلة!!

نظر للصورة لهما معاً، ثم صورة حور و رأى تشابه ملامحها مع صوفي.

اليوم، الذكرى الثامنة عشر لصوفي.

اليوم.

- عدني أن لا تحزن مهما حدث لنا.

- و ماذا قد يحدث لنا ليحزنني؟

- فقط عدني!

- أعدك.

- أنا حامل.

جلس فريد و هو بين آمال قديمة و قيود حاضره تحركه كالدمية بخيوط هلوساته التي سببها مرض أخته الذي ذكره بمرض زوجته و رحيلها بعد ولادة حور بسنة تقريباً. عادت أفكاره تتلاعب بمشاعره، و علم أن الجنون يطرق أبوابه بعنف قوي سخيف لا يتركه و يذهب.

- كل عام و أنتِ بخير يا حبيبتي.

صمتت لوهلة ثم قالت رداً على المفاجأة.

- و أنت بخير.

- يمكنني أن اصطحبك اليوم إلى أينما تريدين؟ و نتكلم في كل الأشياء معاً؟اشتقت إليك..

- و أنا.. كثيراً، كثيراً جداً يا أبي..

***

حور ليست صوفي.

لم يستعمل سيارته منذ أكثر من شهور الأن.

يستخدم المواصلات العامة. معه القليل من الماء و قلم لا يفارقه.

يمسك القلم في تردد و يكتب على جلود المقاعد؛

حور ليست صوفي.

ظل يخطط الجملة هنا و هناك.

حائط بلا أشكال؛

ينقش ؛ حور ليست صوفي.

ظل ينقش و يكتب بهرولة تلك الجملة اللعينة على جدران ما يصادفه من أماكن غريبة و مألوفة و غير معرفة. الناس تقرأ و لا تفهم. و هو بينهم يركض من أي شخص يقترب منه ليسأله عن ما به أو ما أصابه أو ما يعنيه. العقل يخدعنا و يلوث بِنَا من بُعد إلى بعد. أين فريد؟ أين حور؟ أين آدم؟ أين نور؟ و ماذا حدث حقاً لمحب..

سأل نفسه كل ذاك و بدأت دموعه تنحدر؛

كل ما أحب يمشي و يتركني،

اه يا صوفي، نور تمشي و حور ستمشي

و أنا وحيد. فريد وحيد يا صوفي.

يقولون أن الإنسان إذا أرهقه الأرق و لم يستطع النوم أكثر من أربعة أيام, يهلوس. تأكله الهلوسات.

رأى حائط أبيض، هرع إليه و راح يكتب بخط معرج كبير بلا ملامح؛

نور ليست صوفي! نور ليست صوفي!

بدأ يتمتم الكلمات بين شفتيه بتردد غير ملحوظ, كأنه يحفظ, كأنه يذكر نفسه مراراً و مراراً. ابتعد عن الحائط و لاحظ ما كتب، أعياه التعب فهوى غير مدرك ما فعل أو كيف جاء أو أين هو الأن.

***

«أليس من دواعي الرحمة في كثير من الأحيان أن يظل الإنسان جاهلاً بعض الحقائق ؟»

قرأ لها تلك الجملة من رواية أهدتها له في يوم ما، و كانت الغرفة تشع بنور الصباح و رائحة الياسمين تملأ المكان. أغلق الرواية و أخذ ينظر إلى وجه أمه الجميل و لاذ بالصمت. فقط الهدوء و الرائحة الزكية و التأني.

صوتك جميل يا آدم، نظرت له فلم يلفت ذاك نظره، أمسك بيدها و أكمل قراءة فتذكرت تلك اللحظات التي كانت تكتب فيها، و الأن لا تفعل.

تذكرت أن في يوم ما كانت كتاباتها تميل للكآبة، كمثل تلك السطور القليلة؛

كل الأشياء تتطاير، و رمادي لا يقل. الهذا سمي اللون الرمادي؟ لان البقايا دائما محايدة؟ لا هي فائزة ولا بائسة ولا خاسرة ولا مهزومة، و أنا هزمت. هزمت..

لم تعلم كم فات اليوم على آخر سن تذكرته هي فيه. لا تعلم كم من الوقت مر على ذهاب محب، لا تعلم كم من الوقت متبقي من عمرها هي، أو متى يجيء يوم مولدها.

النسيم البارد يحرق جلدها ولا تطيق أية نسمة تعبر بخلاياها; كان آدم قد عاد بعينيه إلى الكتاب وبدأ بقراءة المزيد. غاب عنها العالم للحظات وصارت نظرات آدم المليئة بـخيبات الأمل لا تعني لها شيئا. أغمضت جفنيها وأحست بكلمة «قريب» لازلت ملفوفة حول رقبتها بـاستكان.

آه يا آدم,

في السابعة, حينما كنت صبيا..

في العاشرة, كنت أنا عفية, وكنت أكتب لك القصص..

ماذا بي الأن وكيف الوصول إلى أي شيء الأن..

لماذا تبقى الأن,

حركت قدميها ويديها والتفت حول نفسها, ضربت الكرسي الصامت المتعفن ذو العجلات بعيداً جداً وهرعت إلى آدم, لا زال يقرأ وكأنه لا يراها!

تكلمت, لم تسمع صوت يصدر منها ولكنها قالت ما أرادت ان تقول لإبنها الوحيد ;

أنت ملح المحيط و شعاع شمس قاربت للمغيب. أنت البعيد و القريب. دعوة الذليل للقدوس، و دعوة المُحب للمجيب. أنت قوة السمك في هروبه من التيار المهيب، و انتشار النيران من بركان غاضب مقيت. تقي في نجواك، عفي في الطلب، شرس في العداء، و متسامح عند العفو و الغفران.

أنت الذي لا تطول في الانفصال، و توصل من تعمد الانقطاع. تسري رؤياك تحت أي قناع، و لا تكلم من يغش. إما تموت شريفاً مقاتلاً، أو لا تعش.

تقدم كسهم لا توقفه شدة رياح عاصفة،

اتركهم في ركودهم يركضون في مكانهم،

صلب ارادتك تجعل منهم أصناما أصمة

لا يجادلها أحد و لا يسمعها أحد

إجعل من ماء عيناك طهر لسواد روحك

و طر كطائر جريح هارب من سجانه

سجيتك الحياة و الحب و العطاء

فلا تبخل بروح الصيف و لا بعمق الشتاء

لا تخف يا صغيري،

انطويت داخلي بما فيه الكفاية

و رأت عيناك نور يطمئن كل الضحايا

و انسجمت مع دمي فأصبحت كلي و مني
ينبض قلبك و لا يمل حتى إذا مللت مني
لا تخف،
قد مررنا بكل الآلام و كفى
لا يحيينا بكاء جسدنا و أن بلى
ما الرماد إذاً بعد أكلة النيران
ما الهواء إذاً بعد دخوله الأحشاء
و ما نحن يا صغيري،
بعد مرورنا بكل أنحاء العناء و الشقاء
فعندما يأتي صيف حار مميت
اعلم أننا سنُطفأ و نخمد ثم نحمد
في برودة و احتواء الشتاء
يا صغيري،
أنا الأرض التي أنت اديمها
تعود إلي متى طال زمان فراقنا
متى استطالت المسافات بيننا
حتى و أنت ناظراً إلي
لا تتركني يا صغيري،
أنا انتظرتك و أنت انتظرتني
إن تركتك حينها لكنت هجرتني

و اعتليت جبال الحب لأجلك

فلا تتعب من حملي، لا تنسني،

لا ترميني في الظلام

كيف تنسى؟

كيف تنسى من كانت أول حروفك في الكلام

و كيف تنسى من علمتك ألوان الطعام

و من نجتك من أول مصيبة

و من هدأتك في جوف ليل أفزُعك بالأحلام

لا ترمي حبي وراء ظهرك

فأنا أساس حظك

و زهر دهرك

يا صغيري..

عاد إليها صوت ابنها من بعيد وهو يقول:

«جميع سكان هذه المدينة بلا استثناء محكوم عليهم بالإعدام»

صمت لوهلة ثم أردف بتردد ملحوظ:

-أسف يا نور, جاءت الجملة بين الكلام ولم أعي إنها غير لائقة..

سامحيني..

***

أدم, أنظر إلي,

ماذا ترى؟

-فرصة حلوة.

آخر فرصة حلوة..

***

هواكم بقلبي و الفؤاد مقيم..

و شوقي إليكم مقعد و مقيم..

و أنتم لروحي روحها و نعيمها

فياحبذا روح لها و نعيم..

إذا ما وصلتم..

صوت الدفوف يشدني من بعيد.. أترك لنفسي القيادة و أنساق خلف سحر الغيبة..

رأيت أول درويش يستعد للدوران و الطربوش الطويل كأنه ناقة تعلم كيفما الصعود..

رأيت الذراعين يمتدان أقصى الاتجاهين و رأيت الكفين يرتفعان و رأيت الكيان يتغير

مع ضم الجزء بالكل و انفصام الروح و القلب ثم ائتلاف الأجزاء كلها و وصولها لأعلى.

مدد مدد مدد مدد مدد

هكذا النغم و النمط هكذا العشق و الترنم و الذكر و الأنس..

رأيت نفسي هناك، مكان الدرويش الأوسط و وجدتني لا أتوقف عن الدوران و زارتني أمي على رجليها و طيفها لازال كما هو مستقيم، و رأيتني لا أتكلم و فردت ذراعي بالسر كتوم..

مدد يا الله مدد يا الله مدد مدد مدد

يميناً يساراً يميناً يساراً

إكتمل النور من حولي و زارني السكون حتى اختفى الناس و الطيور و صوت الثوب بين جسدي و الهواء، و اختفى كل حقد و كل شك و كل خوف و كل عدم اكتمال لأي فرصة من فرصي. كأن حور لا توجد و أمي ليس لها وجود و لا أحد موجود سواه

و علمت ان هذا هو العشق، هذا هو الوصال الذي كانت تكلمني عنه أمي، أن لا شيء يهم سوى حضرته و معيته و التوكل عليه و كفايته و أن لا حد في هذه الدنيا يمكنه أن يضرك مهما اسقوى القبضة، و أن المرض اضطراري و ضروري و مؤقت غير مستمر، و من يسمي مرض بمسمى مزمن لا يدري حقا ماهية الزمن. أنا هنا بلا زمان و أنا هنا يا رب دون كل شيء و انتظر السماح و أتوسل يا كبير أن تنقل أمي من السكوت للسلام

فإذا كنت أنا بعيد بجسدي عنك فإن القلب ما برح العبادة و أنت الأعلم..

أنت الأعلى و الأعلم و المدد مدد مدد يا إلهي..

قريب غير بعيد

كل ما يأتي منك نعيم...

(اكتمال)

جاء بجانب وجهها بحذر،

نور.. همس ببطء،

الموعد يا نور...

كانت قد ذهبت في نوم عميق جداً إثر ما حدث الليلة الفائتة، سمعت صوته من بعيد، أتى موقظاً بإزعاج.

-محب، ماذا تريد..

قالت بوهن عدم الإفاقة و إرهاق الجسد.

-موعدنا، اليوم الزيارة.

-و لكننا ذهبنا البارحة!

-لم يكن معنا كفاية..

استيقظت دون اكتراث، و أردفت؛

-محب، تعلم أنه لا يستلطفني.

تعلم أنه كلما رآني صرخ أني السبب.

***

هزت الغرفة فأربكت نومها، و استيقظت من حلم غير مفهوم أو مفسر.

ذراع آدم على حافة السرير، و ما بقي من جسده على أرض غرفتها.

نظرت ببطء إلى رأسه، كم ارادت أن تربت على شعيراته، تضمه إليها و تسمع صوتها يطمئنه عند البكاء كما سبق.

بقيت عينيها مركزة على أصابعها،

عزيمتها هزمتها في كل مرة تتحايل على أعصابها، و كادت أن تأمر إصبع بالتحرك و ينصاع لأمرها. كادت اليد أن تعود تحت امرها، كاد الأمر أن ينجح، لو أن آدم لم يقع من على السرير دون احساس، فأربك الغرفة ثانية.

فزع فجأة و قال بعفوية؛ أمي!

نظر و سكت. لا زالت على السرير.

رأسها لليمين يميل. و يدها مرهقة على ركبتها اليسرى.

فهم آدم ما أرادت أن تفعل فأمسك اليد و أخذ بإتباع أصابعه على اصابعها،

و رأى استجابتها.

الدواء يسري في دمها الأن. أسبوعان.

شهران؟ ام سنة..

نور ترقص بين أصابع آدم،

و أملها يشتعل من جديد.

كل شيء الأن جديد.

***

نور.. عيد الحب. أحبك.

***

الغرفة صغيرة جداً يا حور،

ماذا نفعل هنا؟

ابي لا تقلق! اللوحات في كل مكان..

انتظر فريد حتى آخر المطاف،

فرأى وجه أبيض، عينان زرقاوتان،

حزن يشبه شيء من حور و اللؤلؤ على عنق نحيف..

صوفي؟..

***

لا تفارقه روحها.. و كان الصباح البارد سبب تلك الذكرى اللعينة؛ فالشتاء دائماً ما يستحضر الصور المؤلمة و يرمي بها اجسادنا، نتحطم اشلائاً..

ابهاما يدور حول إبهام. ما مصدر كل تلك الآلام؟

أنتِ السبب يا نور..

دمرتِ حياتي ذاك اليوم..

لم يكن عليها أن تعلم. لم يكن..

صباح مليء بالبرودة كئيب موحش!

المرض كان قد بدأ بالظهور

و الطبيب قال لي أن العلاج لا فائدة منه

و إلا فكيف بخيبة أمله عندما ابلغني الخبر؟

كدت أن أسمع صوت أنفاسي، يدخل و يخرج..

و نور المشفى اعياني.. و مفاصلي لم تطيقني وقتها.. كل شيء أصبح بلا لون أو رائحة أو طعم، ثم نادتني.. حبيبتي نادتني.

و كان علي أن أبرمج جسدي فور سقوطي و أضمم عظامي المفككة مع بعضها البعض و أحمل نفسي و أذهب إليها. و حينما وصلت و رأيت عينيها،

كدت أن أنصهر..

قالت؛

بضعة أسابيع متبقية..

قلت بابتسامة أحرقت كل ما بي؛

- لا أستطيع أن أنتظر!!

لما اخبرتيها يا نور..

لما تكلمتِ، فسبقها الموت إلى موعدهما؟

في آخر يوم لها، همست لي أنها تعلم، و أنها تحبني و أنها لا تريد شيئا من الدنيا سوى أن أريد حور بقوة كما أردتها أن تبقى.

- وعدتني أن لا تحزن مهما حدث بيننا. وعدت.

قالت في ليلة أخذت كل ما أملك مني،

و أعطتني جزء منها لأعيش به كل يوم. كل يوم.

***

أن توقف كل الدم بين شرايينك ليصل إلى اطرافك, فلن يقف أبداً في طريقه إلى قلبك، هناك ستريني دائماً باقي.

قال أدم حين اصتدم بصورة قديمة له مع أمه. ;;كانت تحتضنه بقوة والابتسامة مافارقت وجهها. ابتسم آدم لنظرة أمه في الصورة وتذكر أنها ستعود بالتأكيد من هذا المطاف. على أية حال لم يمر سوى اسبوعان ولازال الوقت مبكر جداً لحكم المرض. أبيه لم ينتهي من عمله بعد. جاءت فكرة أنه تأخر اليوم أيضًا.

قاطع تفكيره استيقاظ نور, فسرع إليها ليسندها ويريحها ويضع جهاز التنفس في وضعه اللائق.

-صباح الخير يا أمي.

ابتسم آدم فرمقته نور بنظرة غريبة توحي بالمفاجأة العفوية لإجابيته الصباحية.

-لا أعلم, حدسي يحدثني أن اليوم شيء جيد سيحدث.

هم بترتيب السرير حولها وجعل الغرفة ذات رائحة غنية وكانت حركاته نمطها سريع حول نور فلم يلاحظ أن هاتفه يرن إلا بعد فترة. رمقت أمه الهاتف فعلمت من المتصل. أزاحه آدم بعيداً وإغلاق صوته, ثم عاد لما كان يفعل في الغرفة حتى لا تشك نور بـشيء.

«أتصل بك الليلة. مشغول الأن.»

بعث بهذه الرسالة لحور سريعا, ثم عاد ينمق ماحول أمه ببطء أوحى غرقه في التفكير الغير مريح.

-الجو جميل اليوم, هذه الستائر يجب أن تفتح صباحاً.

هم بفتح النوافذ, وأغرق الغرفة بالنور فانكمشت أمه انقباضاً,

اه يا إلهي.. لو يتوقف العالم عن الدوران, أو يكف دماغي...

إن العالم لا يعطينا مانريد; بل مانحتاج. لكن, ماذا لو مانحتاج يكن فقط مانريد بشدة قاتلة؟ ألن تتحول الأمنية إلى حاجة؟ ألن يكون هذا هو التوازن؟

نظرت نور إلى اطرافها ولم يكف بصرها من إتباع التفاصيل..

أهكذا كنت يا نور.. هكذا؟

نظرت إلى ولدها ووضعت يدها على كرسيها المتحرك, ذاب عنها جهاز التنفس, وتعليمات الطبيب, غاب عنها عدم احساسها بمفاصلها وعجزها عن الكلام والحركة.

هرعت إلى آدم, ولم تبكي.

جاءت إليها أفكار غريبة, أفكار لا تأتي سوى للغرقى وسط ظلم مهول.

أين ذاك الأمل؟ أين ذاك النور في آخر الطريق؟

وكل خطوة ممهدة بالاشواك.

أمسك آدم بيدها وعادت كعهدها قبل المرض.

رقص قلبها, فبعد ساعات ستلقي محاضرة عن عدم التشاؤم في الحياة.

وبعد سنة ستكتب كتابا يحمل عنوان «كل شيء قابل للحركة.»

سيكون مليء بالنصائح القيمة عن المعارك السلبية والسموم العقلية.

عن الحروب بين الإنسان ونفسه. عن الحب والصلاة الصامتة.

لكن, الأن.

هي بلا حراك, وطفلها الذي هو الأن شاب, يجفف الماء حول وجهها.

متى كبرت يا آدم؟

كم من الوقت قد مر بي.

الأن, كل شيء ينتهي.

***

هذه الزهرية فيها شيء من أمها, والزخارف مع شفافية الستائر تشعر الناظر بالسرور والراحة, أما الصور المرصوصة, فلا تخص أحد غير فريد.

يمكنك أن تعيد روح أي شخص تريد عبر تنظيم كل ماكان يحب في مكان واحد, فإذا أغمضت عيناك وغاب عنك وجود كل شيء آخر, تكاد أن تسمع صوته. تكاد أن تسمع نغمات كلامه يتسرب إليك شاكراً.

إشتقت إليك حد تطبق ضلوعي فوق بعضها البعض.

نفسي لا يدخل إلا بذكرك,

ولا يخرج إلا على ذكراك.

كأن العالم اختنق منذ رحيلك, يا حبيبتي.

وأنا هنا عند قبرك, أحكي لك كل أشيائي; لعلها تهون.

نور ستعود يا صوفي, أليس كذلك؟

إشتقت إلى صوتها كثيراً..

كيف تنظرين إلى شخص فلا تسمعي منه كلمة وتطالبين بالاستمرار في الكلام حتى لا تنسي كيف يبدو صوتك.

هذا هو اليوم الخامس عشر.

قالوا أن الحالة قد تستغرق شهور,

أول ماجاء بـبالي; كم في العمر من الشهور متبقي؟

***

«إشتقت إليك فعلمني أن لا أشتاق»

جاء صوت عبد الحليم كأنه أتٍ من بعيد على غير العادة.

«لا أريد ما يريده الجميع؛ فأنا لست من الجميع»

***

تحول العالم كله حولي إلى زجاج.

تكلمت أمي:

- آدم، ماذا تفعل؟

إرتعش قلبي لثواني و التفت جسدي نحو الصوت، و وددت لو أقول كل ما بنفسي، بل وددت لو خرجت من جلدي و عظمي و دمي و كياني لأذهب إليها، تكرر سؤالها فهرعت إليها.

تحولت صورتها إلى انعكاسي،

و الزجاج بات مرايا، كل صوري حولي

و كل ما ندمت في حياتي يأتيني

ها أنا و أنا أسرق في السابعة تلك القطعة من الحلوة. و ها هي صورتي و أنا أُقبل حور لأول مرة دون إحساس فضربتني. و ها أنا أهرب من المدرسة و لا أعود للبيت.

و ها أنا هنا. في هذه اللحظة.

لا أعلم ما أفعل، و كيف عاد صوت أمي،

و أين أبي؟ حقاً أين أبي؟

و حور الأن أيضاً تختفي؟

- آدم، ماذا تفعل؟!

بعد صمت قصير، أردفت نور و هي ممسكة قطعة قماش بيدها كانت بالمطبخ

- قلت لك مئات المرات، لا يصح أن تنظر في المرآة طويلا في الليل. ليس شيئاً جيداً. خالك و حور سيزورونا غداً، يجب أن تكون مهذب و جميل و مهندم و رائق البال يا صغيري.

أنهت تهذيبه و ألبسته ملابس النوم، جاءت به إلى السرير و همست؛

- لعلها أيامك يا صغيري.. كل ما فيها يكن لك.. تصبح على خير.

أطفأت نور الغرفة و ذهبت.

- ماذا! لماذا النور ثانية!

قالت بفتور،

- كيف تنام هكذا؟!

- و ماذا في نومتي؟ ألا يعجبك أي شيء أفعله يا حبيبتي؟

رمقته بنظرة و ابتسامة رداً لغزله،

و عاد نظرها لنور..

- لا زالت كما هي؟

- قالوا ستتحسن مع الوقت.

- بإذن الله.

تردد للحظات ثم قال:

- أين خالي؟

لم تلتفت له حور و قالت بعدم اهتمام و قلة تفكير؛

- في البيت. اكلت؟

ابتسم و قال بهدوء:

- لا، لتوك ايقظتيني.

- لنذهب إذاً، أتضور جوعا!

سبقته و خرجت من الباب،

فرمقها بنظرة كادت أن تخلعه من مكانه إليها

تاركا عظمه و لحمه و دمه خلال مائة سنة ضوئية ثم همس:

- و أنا. و أنا يا حور..

إذا كان حبك خطيئة, فلما يضيق بي محرابي؟

ابتعدت عنها بكامل ارادة جسدي. توقف الدم الساري بين عظامي وتحولت أنا إلى هواء يذهب وراء خطواتها ويعود معها إلى مسكنها. تصورت أن ابتعادي سيفيدني , سيرجعني بطريقة ما إلى نفسي التي أعرف. وذهبت من طريق وهي من طريق, ثم بقيت وحدي, ثم بكيت وحدي, ولم أرتح ولم أسعد ولم اتجاوزها في تفكيري, في انفاسي. كل شعاع شمس انسدل على جلدي جاء بها نحوي, ونحيبي صار اسمها وكل تبتلي ماعاد يغنيني عنها. فـأنا الناسك الذي عشق الخطيئة كلما غرق فيها أعمق.

كما النوم و الهيم، أرى وجهها غير كل الوجوه. أليس من العدل أن أختر حبيبتي؟

أم لأنها من دمي الأقرب تكن لي الأبعد؟ لماذا يا أمي ربطتي رضاكِ بغضبي؟ لماذا جعلتيني أرى و لا أتكلم و أتوجع دون دواء لدائي. إذا شفيتي يا أمي، ستحل لعنتي مرة أخرى، و إذا بقيتي هكذا، أموت بلا توقف و تكون هي ملاك رحمة جاء ليسكن الآلم المرير، اه يا حور، كيف أحصل عليك و أنت بين أحضاني و لا امتلكك و كيف أتركك و معك روحي أينما ذهبتي؟ ماذا أصنع..

***

برغم قوتي و قسوتي. برغم التخلي النابت بي بعدد كل مرات الرحيل. كان هذا الرحيل هو الأكثر مرارة. اعتقد أننا لا نتعلم أبداً كيف نمنع التعلق، نحن فقط نتأقلم مع طريقة الشفاء. و حتى تلك تفقد جودتها مع مرور الأيام التي لا نريدها أن تمر. كيف أعلم أن الأن هو الوقت المناسب للذهاب أو البقاء أو القسوة أو اللين أو النجاح أو السماح لأي فرصة بإتخاذ مسارٍ ما؟ أنا لا أعلم أي شيء فكيف حكمت أني علمت منه ما لا يعلم هو نفسه؟ الوقتُ قصير جداً و طويل جداً.. كان في منتهى القصر و أنا معه و ازداد و امتد و انطوى.. هنا.. في الغياب ثم في تذكر أسباب الغياب.. ثم اللعنة على التأقلم و التعود على الآلم! ثم يهجر بلا رجعة فلا استهوى اي من الذي الححت به مُذ ايام أو أسابيع أو شهور.. لا أذكر..

تغيرت ملامح كل شيء حتى التعب لم يعد يهدأ عند تذكر صوته او وجهه، بدأ يزداد لا يخف و أنا لا أحتاج سوى راحة تأخذني من وهني إلى وهمي إلى عودتي من مكانه و رائحته.. غير فقط أن معظم الأشياء تحمل مكانه و رائحته و لا يغيب الأمر سوى ليعود؛ كل شيء يخصه يغيب عني ليعود إلا هو..

هو يغيب.. فقط..

و كان الحب الذي وجدته غير كل أنواع الحب. لربما آخرون عاشوه، لربما تقاسم أحدهم ما أشعر في يوم ما، في سنة ما. لكن أنا، كان الأمر جديد علي. كأني في نشوة لا تنتهي، و كل مصدرها كلمات. كأني في وادي كل ظلماته تدنو علي بأنوار المعصية. و كأن لذة الموجود تغيب سلام المخفي. كأن الكلمة و النفس و الضحك و الصمت، أحلى طعماً من العدم. هذا الجنون يأخذني إلى جنة كاذبة، و الجحيم ما عاد موجود و هذا يخيفني، يرعبني. أصبحت أتوق لاسمه و حبه و عشقه و أوقات كلامه، أصبحت أعشق ما أعشق، و أصبح هو العشق بلا عاشق. لا يعشقني، ليس هذه هي الكلمة، هو يريدني، بشكل غير شكلي، عطر غير عطري. و أنا لا أتغير، لم أتغير، لن أتغير، و هو كما هو، عابث. هوائه ملوث بالقرارات الغبارية.

و جسده يصطاد الفرائس، و لعلي انزعجت لفترة أني لم اختر من العرائس، و لعلي أتوق لاحضانه و لعلي لا أجرؤ لاضيع. هو صحراء واسعة جداً تضيق بي وحدي، و أنا تائهة بلا خطوات، بلا عنوان، بلا دليل.

***

و تحول القلق إلى وحش كاسر يأكلني كلما مر الوقت يكبر. ضخم جداً يبتلعون في الرابعة صباحاً. ينخلع قلبي و يذوب مني.

أنا لست أنا، افترسني التفكير و الخوف المبكر. ماذا يحدث لي، علي أن أفيق، علي أن أنجو. ساعدني يا إلهي، أنت أملي، ساعدني....

كأن الذي بيني و بينه شيء لا يخصه.

يجب علي أن أتوقف، ها هي الساعة الثانية عشر صباحاً، يدق قلبي بشدة، المخدر ينسحب من دمي، و لا أطيق الانتظار حتى يسري مفعوله ثانية. يجب أن أتوقف.. الطريق يضيق و أكاد أختنق، و هو يجعلني فوق هذا العالم أسره. أنا الآسرة صرت من الأسرى و لا أستطيع الهروب. جلدي بارد كقطعة ثلجً تذوب مع شدة الحرارة خارجها، و أنا أريد أن أعود إلى حالي، إلى نفسي، ماذا يفعل بي..

لعل كل هذا وهم بلا هدف

لعله محطة أقف فيها

ماذا يحدث لي

أول مرة أكن بهذا الوهن

هذا الضعف

هذا التردد..

مادا تريدين يا حور؟

ماذا تريدين؟

هذا لا يقارن بجمال الجنة!

كم هو جميل..

لكن, أرأيتي الجنة؟

***

كانت قد إنتهت من آخر جلسة تصوير لهذا الاسبوع, بفستانها الأسود القصير و عيناها المثبتتان على ما امامها حتى لا تنسى. بنمطها السريع في الحديث قالت:

-تأخرت.

-أهذا يعني أنك ;لن تاخذين بعض الصور لي اليوم؟

-ربما فيديو كتغيير؟

-حسنا.. ماذا أفعل؟

-فقط قف.. ليس عليك أن تفعل أي شيء. كل ماعليك فعله هو أن تكون موجود..

-ابتسم لها فقالت:

-أعني أمام الكاميرا, لا تتحرك.

-اليوم هو العاشر من فبراير.

قال هذا بلا ولا كلمة أخرى, فلم تنطق, واصلت في تحريك الكاميرا, إلى أن انزلتها و نظرت نحوه و اردفت:

-أجل.

أعادت تركيزها على كاميرتها, و هو عيناه مثبتتان نحوها.

-لا تتذكري؟

لم ترد حور و زاد السكوت الأمر سوءاً حتى قالت:

-تأخرت. علي أن أذهب.

فلم يمنعها.

(نور)

«إن الشك مرحلة جادة في الحياة؛ لكنها محطة مزرية جدا و منهكة جدا.» – مصطفى مستور

مر الأمر كأنه دهر غير مستوي. الفراق، المرض، العشق، التخلي و الوداع. ماذا يا إلهي؟ ألا أستحق المعرفة؟ العلم؟

نظرت إلى سقف غرفتي المغطى باللون الأبيض المزعج جدا، و همست؛ أنت تعلم بالضبط ماذا أريد، و كيف أريده. همست و احسست أن همسي هز الكون كله لأجزاء من أجزاء الثانية.

و كدت أجزم، أن هذا لابد أن يكون ما يسمونه بسكرات الموت. فقط، لم أكن أموت. جسدي بكامل صحته و هيبته. و قد فات أكثر من خمس سنين على هزلي. و آدم نسى ضعفي، و فريد أيضاً. و أنا هنا في هذا البيت العتيق بلا وطن.

كل ما يحدث، هو لقاء جلدي بالنهار و اختفاءه بالليل. الزيارة صارت واجب، قد هرب الجميع.

***

ها أنا متروكة بجانب وسادتي، اللون الأسود ينسدل من عيني، كدماء غراب ذبح بلا سبب، بلا وسيلة و بلا تفسير أو منطق. كقطعة قماش ذابلة، أهلكها السفر، كل ما يأتي ببالي؛ كيف لا يسأل عن حالي؟ كيف هانت روحي هذا القدر؟ أيمكن أن أكون أنا أقل من جميهن؟ الأسئلة إلتفت حولي و قررت في الظلام أن تراقصني؛ تخبطت من جانب إلى آخر، اصتدمت بأول خيط نور عندما عاد لي صوت ضحكته مصحوب بكلمة «حبيبتي» الذي قيلت بخفوت هامس مليء بالخجل. كان يخجل أن اسمعها أو كان يخاف ربما. جاءني هواء من تحتي بينما أنا أدوخ في ظلامي، كان أول صوت منه يعلو أكثر من المعتاد. و كان جلدي ضعيف و وهن، صمتت حينها و أنا لا أصمت في تلك المواقف. كل تصرفاتي حدث عكسها، فظن هو أني كل ما ليس أنا. أظن أن هذا هو سبب رحيله. لم أستطع أن أفيق بين افكاري، فانغرست أعمق دون إدراكي، اه يا إلهي، كيف أعود إلى وقتي، أنا لا اشعر سوى بإسمه. يخيل لي أني عندما لا أنطقه، يظل معلق في حلقي، و أي نفس يدخل يطرب بحروفه، أي نفس يخرج يؤلمني بطعمه. أرغم نفسي بألم أن لا أتذكره، فأتذكر كل ما فيه. أكثر ما يميتني، ضحكاتي معه دون أدنى مجهود منه. قلبي ممزق، كتبت عنه البارحة، لا

أعلم ما إذ قرأ الكلمات، لكنه ذهب على أية حال. كأنه كان ذاهب بكل الأحوال.

و لعلي لا أريد أكثر من كلمات معك.

لعل آلم شفاهي من فرط الابتسامة المستمرة لكل ما تقول و كل ما لا تقول هو فقط امتداد لهذه الصداقة المسماة بيننا. أنا لا أحبك، بالتأكيد لا، هذا غير مشروط، غير مطلوب و مؤذي. أنا فقط أريدك بكل الأشكال، فوق جلدي و تحته. مع أنفاسي و ربما قبل وصولها إلي. أنا فقط لا أستطيع التخلص من لهفتي كلما سمعت صوتك، أنا فقط كلي منك إذاً لم أكن قبل حدوثك. أنا فقط لا أمتلك قلبي و لا أنت تفعل، كل ما في الأمر أنه يعلم دماره و يظل يسعى إليه كأنه خلاصه الوحيد. كأنك خلاصي الوحيد.

حاولت..

أن أضع يدي موضع الآلم، و أغمض عيني و أحبس دمعاتي، كي لا تضيع فرصة التخلص منك. فعلت هذا بكامل ارادتي التي هي عكس ما أريد، و بدأت بنزعك عني. نزعتك عن جلدي دون أن أنظر، و بدأ الآلم يزيد، فكان علي أن ألقي نظرة عن كثب لأرى السبب. وجدتك تحت عظامي تستتر. لا تتكلم، فقط موجود. و هذا الآلم اللعين لا يتوقف. لم أنزف؛ بل تجمد الدم حولك كأنه يرفض، يظاهر، لا يوافقني قراري.. بنزعك عني. لم أبك. صار البكاء آخر شيء أريده، لأنِّي إذا بكيت، دُمِّر كل شيء. و ربما صرت تراني أضعف معك و ربما تخرج من تحت تكوين جسدي، و ربما تزداد حجما فتأكلني أنا و مشاعري و انغراسي و انفرادي في سري الدفين. ربما علمت أني أريد نزعك فلا تذهب..

لذا، أخاف أن تتغير نبرة صوتي وسط الكلام، أخاف من تأخر ضحكتي عن المعتاد، أخاف من سكوتي إذا إمتد، فتظن أني أنوي الرحيل. فلا أسكت، و أضحك، و أهم شيء؛ امنع نفسي قتلاً من البكاء، وجدت حولي أو لم توجد.

أنا لا أبكي. أنا لا أبكي.

***

نفذت مني التبريرات. فرغت من قول لأن. و اعتمدت كلياً على الحقائق أمامي. غير مهتمة بقلبي. أحبه؟ لا، لا أظن. أنا مسحورة. و نوع سحري الذي سيطر على جوارحي، اسمه «سحر الكلام» ذاك الذي يغري بلطف و يقتل الوقت ثم يترك

صاحبه غارقاً في الهيام و الأوهام. ذلك السحر، يطبع على القلب. سحر الكلام يجعلك تريد أكثر و أكثر في كل مرة. فأنا أحب حديثه و لا أكتفي منه مهما طال. أحب سماع صوته؛ خصيصاً سماع اسمي بصوته. اعتقدت أن سقف السحر يقف عند ذاك المستوى؛ و لكنه لا يقف. أراه أمامي يتكلم في كل مكان، و لا أراه بجسده. أحبه؟ لا أظن، فأنا نعم لا أستطيع الابتعاد عنه و لكني لا أستطيع القرب أيضاً. أنا فقط مسحورة.. و حتى ينسحب ذاك السحر عني وقتما يشاء ربي، لا أظن أني أحبه، لا، لا أظن..

أمسك بيدها وهو عائد بها للبيت وأردف:

-الحمدلله, ثلاث اسابيع طوال, لكنهم انقضوا يا حبيبتي.

لم تقل شيئا, ولكنها تفكرت في نفسها:

-ثلاث اسابيع؟....

***

سأتراقص يا أمي، آخذاً كل آلامك بعيداً. ستحلق انفاسي عالياً حتى تلاحق روحك في كل مرة تنامين فيها. في كل مرة تحلمين فيها، سأتجسد في أبهى صوري و أجعلك تركضين كصبية في العشرين. لا تخافي يا أمي الحياة ليست سوى ساعة في مقر هذا الكون. الكون هو تكويننا على هذا الكوكب و أنتِ يا أمي شمسي.

أنتِ شمس و الملوك كواكب.

عاد يجمع أشلاء روحه حين تذكر أن الغفران شيء عظيم و أن الأسرار لم تُخلق كي تقال. و هو كان محاط بكل واحد منهم؛ القليل و الكثير. نظر إلى صورة نور، لا زالت قطعات وجهها و ثناياه يبهجاه، لا زال وجهه يبتسم مع اعتصار قلبه من الألم و العذاب المبكر. لا يستوي الأعمى و المبصر، و هو لم يعلم ماذا الأن يرى و ماذا بقي مخبأ تحت أنوار المدينة.

فإذا هو شارد جاء صوت أمه يرن في مخيلته بكلمات تطبعت برائحة نور ربما :

لا تسير مغمض العينين. و لا تنظر لأسفل فترى قدميك يتحركان بنمط ثابت ممل. لا تتعب من كثرة التعب و لا تفكر أكثر من اللازم. أنت وجودك في كل الأوقات لازم. و أنت المملوك لنفسك و المالك، لكل ما تفعل في دائرة قدراتك. و قدراتك

تدور حولك فلا تعبأ بالنهاية. فقط ركز على البداية، و لا تهتم بالركود، و لا بالركض على أرض ليس لها وجود. لا تتذكر ما لم يكُن يوماً موجود. و لا تحن لسراب، فتستيقظ على رمال بيضاء ليس لها أول أو آخر.

ابتسم لافكاره وكيف أن عقله يتلاعب به يمينا وشمالاً.

ماهذه الدنيا؟

***

لا زلت أنتظر... كم هذا سخيف حقاً, سمعت مرة زوجتي تقول; إن الخير والشر لا يتنافسان; بل يحتضن كل واحد منهما الأخر على غير علم أو طريق, فلا يسعهما أن ينفصلا فيعودا مرة أخرى. لأكون صريحا, لم أفهم كلمة مما قالت. و ظهر هذا على ملامح وجهي, فوجدتها توقفت عن الكلام و ابتسمت ثم باشرت بالدندنة عن شيء آخر كلياً.

كانت زوجتي تصلي في محرابها, يوم هلعت إليها لتنقذني من نفسي; كنت أُوشك ان أقتل أحداً دون دراية أو تفكير, و وجدتها تهمس بثقل قلب. كان هذا قبل معرفتها بمرضها, أو أظن معرفتي أنا بمرضها. فأدم كان يعلم, لكنه وقتها لم يكن بالبيت. وقفت و الخمار الشفاف ينسدل حولها, تناجي الرب لعلها تُجاب.

و أنا نسيت سبب غضبي. نسيت لماذا اوشكت على القتل.

***

كل الاشياء تدور حول نفس المصدر.

كلما ابتعدت عادت أسرع و أقوى و أنفع.

الكل يدور و يفنى

الاجابات في هذا المنفى

المسمى بالتضحية.

كيف يتركنا الرب مشتتين؟

لا يفعل. لا يفعل.

الرب لا يترك؛ الرب يرى.

و ماذا بعد؟

***

الجمعة،

١٠ فبراير.

استيقظ آدم على صوت الباب يهد من الخبطات القوية و صوت رجل يصرخ في السابعة صباحا؛

نور!!! يا نور! صوفي يا نور! صوفي!

اقبل آدم دون إدراك نحو الباب بسرعة، فوجده فريد لا يتوقف عن النحيب قولا؛

صوفي يا نور!! أين أنتِ يا نور!

فتح آدم هرعا و قال؛

خالي! إهدأ، ماذا هناك! تنفس أرجوك!

- آدم، صوفي يا آدم ماتت ثانية! في البيت في السرير لا تتنفس! أين نور لتعلم؟ أين هي؟

يا خالي إهدأ، لا أفهم! ماذا تقول..

أمسك فريد بذراعي آدم بقوة فكاد أن يخلعهما و قال بإصرار؛

ماذا الذي لا تفهمه.. صوفي في سرير حور لا تنطق!

نظر آدم لخاله في ذعر و أخذ مفاتيحه و انطلق للبيت، نحو غرفة حور،

التي كانت غرفة حور..

صورهم تملأ المكان، و فيديو يعيد نفسه في حاسوب حور، آخر فيديو لهما..

«لا تقف أمام الكاميرا هكذا! تحرك!

ماذا أفعل؟! لا تجعلي مني قبيح!

لا ليس ممكن أبداً. إضحك يا آدم!

إضحكِ أنتِ حتى لا أبدو سعيد وحدي..

أحبك.»

حور؟

لا ليست حور، هذه أخرى تشبهها، و أكيد نائمة، و بالتأكيد ستصحو، و سأقول لها أني قررت..

أني قررت أن أحبها..

جلس فريد على أرض الغرفة أمام الباب يقول وسط نحيبه:

- اه يا صوفي... لماذا تموتين ثانية..

لماذا يا صوفي تتركيني مرة أخرى؟

اه يا حبيبتي...

***

فتحت عيناها بصعوبة ذات يوم,

و لأول مرة لم تكن على فراش أبيض في مشفى ملىء برائحة عدم العودة.

كان أدم و محب و فريد و في الغرفة,

امتدت يدها إلى محب و أدم فدنوا منها و فرحتهما تكاد تقتلهما في آنٍ واحد.

-إنتهى يا نور, كل شيء إنتهى يا حبيبتي, إنتهى صدقيني, أنتِ بخير أنتِ بخير!!

احتضنها محب بقوة و غاصت هي داخله فعادت إليها كل اللحظات مجمعة دون إدراك أو وعي.

-عدتي إلينا يا نور!

قال بدموع لم تفارقه سعادة.

إقترب منها فريد بحذر و همس:

-نور.. شقيقتي..

إرتمى في احضانها كالعائد من جزيرة قاحلة موحشة قد طال بها المكوث.

و كان العالم سعيد في تلك اللحظات.

لحظات الوصول الأولى.

قد تنسى أيام الشقاء, قد تتناسى ماذا جاء بك هنا بالاصل..

ولكن كل شيء واضح و براق وأنت بدأت بخطوات الفهم الان:

ما طال شيئا غلا وانتهى.

وها هو إنتهى..

***

رحلتي إلى السماء..

كان سؤال واحد يجعلني أفزع, وكنت لا أجد منه مهرباً..

أغمضت عيني واحتضنت طفلي..

عندما فتحت لأرى ما و من حولي, لم اجد أي شيء.

رفعت يدي إلى موضع ما فوق ركبتي فجاء اهتزازها اثر أعراض المرض الذي لا يذهب, وكنت بلا أحد حولي, كانت الشمس رفيقتي والهواء البارد مع اشعتها الساخنة أعادني إلى حقبتي الأولى, عدم الحاجة.

كأني أسمع أصوات من السماء تناديني.. كأن العالم هدأ وتوقف صراخه, في هذه الثواني. ابتسمت حتى جاء السؤال متكرر, يعكر صفوي.

لكنتُ تجاهلته ولم أكترث؛ لكني إذا لم أعثر على إجابة, أظل هنا غير حرة, وإذا لم يكن له إجابة, فما العمل؟

أيمكن أن يوجد سؤال دون أن توجد له إجابة؟

تنفست ببطء حتى لا أختنق, وابتعدت عن رأسي لوهلة,

أسندت رقبتي إلى سريري وظللت أحدق في بياض السقف حتى ظننت أني سأصاب بالعمى; كأني مبصرة مثلاً.

سألني آدم مرة ولم أعلم ما إذا جاوبته بالشكل الصحيح.

فأنا ماهرة في اختلاق الاجابات وجعلها منمقة حقيقية. وكنت أعلم أني أهذي, وهو صدق. ابتسم وصدق وذهب للنوم.

رأيتك تصلين يا أمي,

فما هي الصلاة؟

ماذا تقولين؟

كيف تقفين؟

ماذا تقولين؟

كيف تهمسين؟

سمعتك تناجين:

«صلني في اللقاء المطلق»

ماهو ذاك يا أماه؟

ولم أنطق حينها بكلمة واحدة.

اللقاء المُطلق.

روح من روح، نور من نور ثم ما حدث من معجزة و تجلي و انبثاق الحياة، أول دقة قلب، أول نبض، أول خيط من النور للعين؛ و تلك النظرة الأولى. إعلم قيمة روحك، ارتقي للآفاق، ارتقي لمكانتك العظيمة، أنت لست ما بين، بل أنت بيّن. الطين شكلك و النور جوفك. الطين شكلك و النور جوفك.

في الدقائق الأولى، تنفرد و تتقدم بالاعتذار عن التأخر و عن التقصير. تستأذن الدخول للدائرة العظمى و يُسمح لك.

تمر بعض دقائق أخرى،

تبدأ بالبوح، تبوح بكل ما تحمله في قلبك.

تقول كل الجراح، ينفتح قلبك و يتدفق ما به غير مبالي من انسياب الدموع.

في أواخر الدقائق،

ينصهر قلبك حين تطفو روحك حول آلامك،

آخذة العبء لتغوص به داخل أعمق عمق.

الأن أنت تصل، أنت موصول؛ أنت في صلاة.

صلاة صامتة. بلا تبريرات. بلا احتجاجات. و بلا احتياجات.

***

هذه الرسالة لكِ..

أنا آدم، بلا أي شيء يذكر أتطوح يميناً و يساراً غير مدرك الحياة بدون السر الأبدي، اكتشفته لتوى و لا أبخل عَلَيْكِ بالمعرفة. أمي و مرضها كان شفائي و حياة حور و إفاقة فريد. أما محب، أبي، فذاك حاله استقر في المعاناة.

جئت لأقول لكِ دون بداية جملة ‹أمي تقول..›

لأن العالم كله يسمعني و لسبب ما يتردد على مسمعي تسآل عن الفراق.

كيف هو الفراق؟

كسكين مغروز في صدري يُلف ثم يسحب ببطء الأيام كلما قررت أنتِ التخلي المنزوع الكلام. كلما وجدتكِ بلا إرادة للقاء. كلما ذهب منك جزء؛ أهدرتَ أنا دماء أكثر و لا أشعر بشيء غير ألَم الانسحاب.

فصلة

للنشر و التوزيع

Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail.com

Facebook .Com/Fasla .Pub